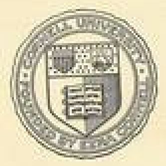




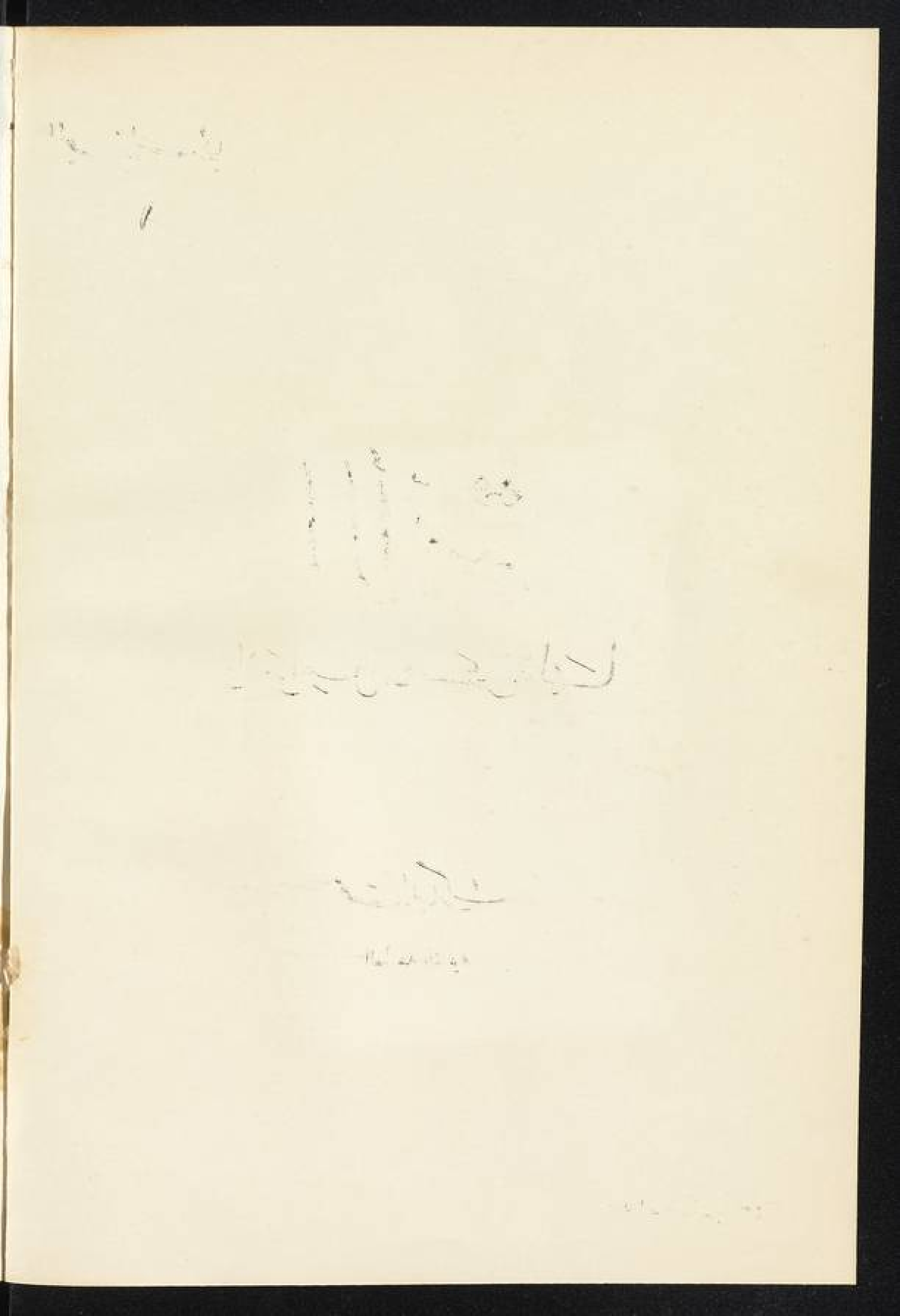
المجتمع العربي
١

الأمّة
والعوامل المكونة لها

محمد المبارك

الطبعة الثانية

دار الفكر بدمشق



المجتمع العربي

١

الأمّة

والعوامل المكونة لها

محمّد المبارك

الطبعة الثانية

دار الفكر بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله وصلاة النبي وسلاماً على العربي المبعوث رحمة للعالمين

تمهيد

إن بحث العوامل المكونة للامة وتحديد مفهوم الأمة والقومية والشعب ، من الأبحاث التي يعنى بها كل مثقف كما يعنى بها المهتمون بالدراسات الاجتماعية . وهو موضوع اهتمام خاص لدى الباحثين في المجتمع العربي ومحل تفكير أبناء البلاد العربية لما ينتج عن الأخذ باحدى وجهات النظر المختلفة من نتائج هامة في مجال التربية والتعليم والثقافة والتفكير وفي ميادين السياسة والعمل الاجتماعي . ولذلك كان هذا البحث من الموضوعات التي تدرس في كثير من الكليات في الجامعات العربية ضمن مباحث المجتمع العربي اوفى مباحث علم الاجتماع.

وقد رأيت أن من الضروري إبراز هذا الموضوع وعرضه عرضاً

مفصلاً بعض التفصيل يستند إلى مسلمات علم الاجتماع ومعالجته في ضوء نظرياته معالجة موضوعية بعيدة عن العواطف والرغبات مهما تكن تلك العواطف طيبة والرغبات صالحة .

فقد تدفع بعض الناس رغبة خاصة في إقصاء عنصر الدين عن القومية مثلاً إلى تقرير هذه الرغبة على أنها حقيقة واقعة ، يذهبون سلفاً إلى تقريرها والبحث عن الأدلة التي تؤيدها .

وقد تدفع الحماسة للعقيدة الدينية فريقاً آخر إلى الاعتقاد سلفاً بأن الدين بوجه عام أيا كان ذلك الدين هو أساس تكوين المجتمعات والرابطة الأساسية التي تربط بين أفرادها فيقيمون أملهم المنتظر وهدفهم المثالي المنشود في تكوين مجتمع إنساني رابطته العقيدة الدينية مقام الحقيقة الواقعة . وشتان في الحالين بين الرغبات الانسانية أو الأهداف المثالية والحقائق الواقعة سواء أكانت هذه الحقائق حسنة مرغوبة أم سيئة مستنكرة .

وهذا ما حدث بالفعل للباحثين في المجتمع العربي وكثيراً مادار الجدل بين فريقين يمثلان النظرتين .

فان فريقاً من أبناء المجتمع العربي لهم فكرة سابقة ورغبة خاصة في إقصاء الدين بوجه عام والاسلام بوجه خاص عن المجتمع العربي

سواء في تكوينه التاريخي أو في تخطيطه للمستقبل وقد تكون هذه الفكرة ناشئة عن مفاهيم خاطئة عن الاسلام أو تاريخ العرب أو أن تكون لتلك الرغبة بواعث شخصية أو عصبية خاصة تدفع صاحبها لأن يتمنى أن لايكون الاسلام أساساً للمجتمع العربي في الحاضر وقد تدفعه إلى الادعاء أن ليس الاسلام عنصراً أساسياً في المجتمع العربي حتى في الماضي بل قد يعصف به هوى جامح ومنطق سخيف إلى الادعاء أن العهد الجاهلي في تاريخ العرب أفضل وأرقى من العهد الاسلامي .

ففرق كبير بين الرغبة في أن يكون المجتمع على صورة من الصور التي يراها بعض الناس مثالية وبين واقع المجتمع . على أن تلك الرغبة قد تكون لها دوافع شخصية أو تكون ناشئة عن مصلحة فرد أو جماعة خاصين دون غيرهم ولا تكون مجردة ولا واقعية ولا تكون كذلك مثالية فتكوين الأمم والقوميات وعوامل تكوينها وتطورها لا تخضع لهذه الرغبات والأماني ولا تخضع لرأي الباحث في ميله الشخصي لترجيح أحد العوامل أو إقصائه سواء أكان ذلك الميل ناشئاً عن رغبة شخصية أو منفعة أو عن فكرة خاصة يعتقدبها. وكثيراً ماتلتبس الرغبات الشخصية بالحقائق الواقعة فيقيم الانسان رغبته أو

مثاليته مقام الحقيقـة فيقررها على أنها واقع ويمضي في إقامة الأدلة على اثباتها . وهذا ماحدث لدى بعض الباحثين في المجتمع العربي .

* * *

وهناك أمر آخر كان سبباً في الوقوع في الخطـأ في بحث عوامل تكوين الأمة العربيـة عند الباحثين في هـذا الموضوع . ذلك إهمـال النظرة التطورية في العوامل المكونة للأمة فان هـذه العوامل نفسها في تطور ونصيب كل منهـا في تكوين الأمة يختلف باختلاف مراحـل التطور . فليست هذه العوامل نفسها ثابتة مستقرة في مدى تأثيرها . فقد يكون تأثير الأرض أو الجنس (العرق) في طور من أطوار نشوء الأمة أو المجتمع القومي قوياً عميقاً ولا يكون كذلك دائماً وهذا ماأوضحناه وراعيناه في بحثنا .

* * *

ولعلنا سلكنا فيما كتبناه في هـذا البحث طريقاً جديداً في تحليل بعض العوامل الاجتماعية كالتاريخ واللغة والثقافة وارجاعها الى العناصر التي تتـألف منها وتختفي وراءها . ذلك أن عـدم التعمق في تحليل مضامينها أوقع كثيراً من الباحثين في رأينـا في الخطأ والسطحية . وكذلك الحال في عنصر الدين فان مايدخل تحت هذا الاسم وينطوي

تحت هـذا العنوان مختلف متنوع من الوجهـة الاجتماعية . فالدين قد يكون مجموع شعائر (طقوس) وعبادات وليس فيه إلا عدد بسيط من المعتقدات والأفكاروقد يكون مشتملاً على نظرات عامة للوجود وعلى فلسفة في الحيـاة وقد يكون مشتملاً على انظمـة اجتماعية . ولا يكون تأثيره الاجتماعي في هذه الأحوال واحداً وقد تشاركه بعض المذاهب الاعتقـادية غير الدينية في تأثيره الاجتماعي دون أن تكون ادياناً . ومن هنا يتبين أن كلمة (الدين) قد تخفي وراءها مفاهيم مختلفة وظواهر متنوعة وليس أثرها في القوميات والأمم وتكوينها واحداً باعتبارها عوامل مؤثرة في هذاالتكوين ولا يمكن حينئذ إطلاق حكم واحد عليها . ذلك ان المفهوم العرفي واللغوي لكلمة دين يقابله مفاهيم مختلفة من الوجهة الاجتماعية .

★ ★ ★

وهذا البحث الذي أقدمه جزء من مجموع ابحاث عنيت بها منـذ سنين طويلة تدور حول الأمة والقوميـة والانسانية وما بينهـا من علاقات وما يسير نحوه التطور البشري في هذاالمجال من وجهة النظر الواقعية الموضوعية (التـاريخية الاجتماعية) ومن وجهـة النظر المثالية الخلقية من ناحية أخرى وتطبيق ذلك على الصعيد العربي مما يكشف

العلاقة بين العروبة والانسانية ، والصلة بين العروبة والاسلام .

ولئن كانت هذه الأبحاث التي أشرت اليها جاهزة في هيكلها العام واجزائها المفصلة فانها تحتاج لاخراجها وعرضها إلى إعداد ، وأرجو الله تعالى أن يتيح لذلك فرصة قريبة وهو المستعان وعليه التكلان .

محمد المبارك

الأستاذ في جامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المجتمع العربي

المقدمة

قد نتساءل لماذا ندرس المجتمع العربي وما الغاية من دراسته ؟ والجواب على هذا التساؤل هو :

١ — اننا ندرس المجتمع العربي لأنه المجتمع الذي نعيش فيه ، فهو بيئتنا التي يجب أن نعرفها ونتآلف معها ، والبيئة التي نحاول أن نصلحها ونساهم في تحسينها وترقيتها، ومعرفتها شرط أساسي لابد منه للتمكن من إصلاحها .

وإذا كنا ندرس مبادىء الاسلام وتعاليمه وعقيدته وتشريعه في كلية الشريعة ، فانما هدف هذه الدراسة إصلاح المجتمع الانساني على هذه الأسس السليمة المتينة وإيصاله الى هذه الأهداف الانسانية السامية ، ولا بد لتحقيق هذه الغاية من دراسة المجتمع الذي يراد

إصلاحه ، ومعرفة البيئة التي يراد تطبيق هـذه المبادىء فيها ، ولذلك يدرس العربي مجتمعـه الخاص ، كما يدرس الأندونيسي والباكستاني والأفغاني وغيرهم من أبنـاء البلاد الاسلامية ، مجتمعاتهم التي يريدون إصلاحها ، دراسة علمية تعرفهم بمـا فيها من أحوال ، وما يجري فيها من تبدلات ، وما يقع من مشكلات .

٢ — وثمـة سبب آخر يقتضي دراسة المجتمع العربي في كلية الشريعة ، ذلك أن المجتمع العربي هو بيئـة الاسلام الأولى ، فمنه شع نور الاسلام ، وبلغته تنزلت آيات الكتاب الكريم ، ولا بد لفهم هذه الآيات وما تضمنته من أحـكام ، من معرفة عادات العرب وأساليبهم في الحياة ، لأن الخطاب وجه أول ماوجـه اليهم ، فهو وإن كان عاماً في حكمه ، خاص في أسلوبه وطريقة إلقائه ، فقـد جاء على طريقتهم في الخطـاب ، ولا بد من تحكيم فهم العرب وعاداتهم في تفسيره . ولا بد أن تكون ثمة حكمة آلهية في اختيار البيئة العربية مهبطاً للرسالة وقاعدة لانطلاق الدعوة الاسلامية ، وهي دعوة إنسانية عامة لاتخص شعباً ، ولا تنحصر في أرض .

٣ — وإن انطلاق الدعوة الاسلامية ومبادىء الاسلام في هـذا العصر يجب أن يبدأ من حيث بدأ في الانطلاقة الأولى ، ومن أجل

هـذه الغاية يجب أن ندرس المجتمع العربي دراسة تمكننا من معرفة أحواله وظروفه ، وتمكننا من جعله أساساً لهذا الانطلاق ،

نواحي دراسته :

إن معرفتنا لهـذا المجتمع تقتضي معرفة حاضره وماضيه ، وتصور مستقبله وتطوره ومصيره ، وتشتمل على دراسة نواحيـه السياسية والاقتصادية والفكرية والخلقية والاجتماعية، وعلى معالجة مشكلاته في هـذه النواحي ، وعلى صلاته بالعـالم الخـارجي والشعوب الأخرى ، سواء في ذلك صلاتـه مع الشعوب التي تشترك معـه في الثقـافة او الدين ، او مع الشعوب التي غزته واستعمرت بلاده ، وعلى مشكلاتـه كذلك في هذه الصلات الخارجية. كما تقتضي كذلك دراسة المجتمع العربي معرفة العوامل التي كونته والروابط التي تشد افراده ومـا يكون من هذه الروابط اساسياً وثانوياً ومن اجل هـذا قدمنا هـذه الدراسة التي بحثنا فيها العوامل التي تكون الأمة .

العالم ينقسم الى شعوب

تتكون البشرية من شعوب ، اواقوام، اوقوميات ،يتميز كل منها بأرضه ولغته وعاداته وتقاليده ، سواء أكان هذا الشعب يؤلف دولة او جزءاً من دولة او اكثر من دولة ، وكل هـذه الأحوال واقعة ولها شواهد في الحاضر والماضي .

وتختلف الشعوب في تكوين ظروفها التاريخية وفي صفاتها المادية والمعنوية وفي خصائصها التي كونتها ارضها وتاريخها خلال قرون طويلة جداً ، وفي لغاتها ولهجاتها وفي امزجتها وعقلياتها . ويحصل بين افراد الشعب الواحد بسبب الاشتراك في هـذه الأمور من التآلف الطبيعي والحياة المشتركة الطويلة مالايكون بينهم وبين غيرهم، فكما أن التآلف في نطاق الأسرة طبيعي يستند الى الغريزة والفطرة الطبيعية ، فكذلك يحصل من التآلف في نطاق اوسع داخل كل شعب او قوم مايشبه ذلك التآلف الطبيعي بسبب التشابه والتعايش الطويل .

وليس اختلاف الشعوب نقمة ، بل نعمة ، ذلك أن التعاون

البشري بين الجماعات ، كما هو بين الأفراد ، يتم على اساس التكامل واستفادة كل واحد مما يحسنه الآخر ، فيتم تبادل المنافع بقيام كل شعب بما يحسنه ويميل اليه من الماديات والمعنويات .

وان اختلاف الأقوام في صفاتها وخصائصها ومواهبها وعددها وقوتها ، لا يمنع من تساويها في القيمة المعنوية والكرامة الانسانية ، ولا يمنع كذلك من اشتراكها في بناء الحضارة والتقائها على صعيد واحد مشترك في كثير من الشؤون . وإذا كان ارتباط الانسان بقومه الذي ينتمي اليه ، وشعوره بالتضامن معهم بسبب عوامل نفسية واجتماعية قوامها الحياة المشتركة ، وهو مايعبر عنه **بالشعور القومي** ، شعوراً طبيعياً فان نزوع الشعوب الى الالتقاء وتطورها الواقعي ، ولا سيما في العصر الحاضر ، نحو أهداف مشتركة، ونمو التقارب والتشابه فيما بينها وتعاونها في كثير من ميادين العلم والاقتصاد والسياسة وغيرها ، يدل كذلك على أن **النزعة الانسانية** في جميع الأقوام نزعة طبيعية كذلك . وقد كان للأديان السماوية أثر قوي في تقوية هذه النزعة الانسانية ، وفي توطيد الصلات بين الشعوب وإيجاد نقط الالتقاء بين الشعوب التي دانت بدين واحد .

وتحاول المذاهب السياسية الجديدة الاستفادة من هذا الاتجاه

الطبيعي نحو الانسانية لتوطيد أسسها وتمكين قواعدها .

ونستطيع إجمال ماذكرناه في نتيجتين :

١ — ان البشرية كانت ولا تزال مؤلفة من أقوام أو شعوب تختلف في لغاتها وأوطانها وفي كثير من الصفات والخصائص والظروف والأحوال :

٢ — إن الأقوام تتطور سائرة باتجاهها نحو الالتقاء والتعاون الانساني ، وتزداد في كل يوم ساحة الالتقاء ومواطن الاشتراك حتى أصبحت القوميات المغلقة قوميات متخلفة عن ركب التطور الحضاري .

وتلخص هذه النتائج أروع تلخيص في أوضح تعبير الآية القرآنية القائلة : « يا أيها النَّاس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا » .

المجتمع العربي

في هذا العالم المؤلف من قوميات كثيرة وشعوب عـديدة ، بلاد تمتد في رقعة واسعة من الأرض، يسكنها شعب لغته العربية ، يشترك في عاداته وتقاليده ، وفي تاريخه العام ، وفي صلته بالشعوب الأخرى وفي ثقافته ومثله العليا ، تلك هي البلاد العربيـة ، وتسمى أحياناً العالم العربي ، وأحيـاناً أخرى الوطن العربي ، ويطلق على المجتمـع الذي يتكون من سكانها (المجتمع العربي) .

الموقع والأرض :

تمتد الأرض التي يسكنها الشعب العربي من حـدود إيران شرقاً إلى ساحل البحر المحيـط الأطلسي غربـاً ، ومن جبـال طوروس على حـدود تركيا شمالاً الى ساحل جنوب الجزيرة العربيـة جنوباً ، وتقرب مساحة هـذه الأرض من مساحة أوربا ، وتزيد على مساحة أمريكا ، وهي تلي مساحة الاتحـاد السوفيتي ، وتتوزع بين قارتي آسيا وأفريقيا .

وموقع البلاد العربية موقع هام جداً ، ذلك أنها تتصل بقارات ثلاث ، وبعدد كبير من الشعوب ، وبأربعة بحار هي (الأطلسي والمتوسط والأحمر والهادي) ولذلك كانت هذه البلاد نقطة اتصال بين قارات الأرض ،تخترقها طرق المواصلات البرية والبحرية والجوية التي تصل أجزاء العالم بعضها ببعض .

وتمتاز هذه البلاد باتصال أجزائها وامتدادها على رقعة واسعة من العالم وإن كانت تحجز بينها بعض الحواجز الطبيعية كالصحارى ، وذلك مما سبب انقسامها الى مناطق وأقاليم وهي :

١ – منطقة بلاد الشام وتشتمل اليوم على سورية ولبنان والأردن وفلسطين .

٢ – منطقة العراق .

٣ – الجزيرة العربية ، وتشتمل على المملكة العربية السعودية (نجد والحجاز) واليمن وإمارات الجنوب العربي والكويت وقطر والبحرين وعمان .

٤ – وادي النيل ، ويشتمل على مصر والسودان .

٥ – المغرب العربي ، ويشتمل على ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية .

وللبلاد العربية فوق هذا امتدادات في جنوب المغرب العربي وجنوب السودان وعلى سواحل افريقيا الشرقية .

ولكن هذه المناطق والأقاليم على تعددها وتنوعها يسكنها شعب يشترك في جميع مقوماته الأساسية في الحياة ، وليس الاختلاف بينها بأكثر من الاختلاف بين أقاليم البلاد الأخرى ومناطقها في تنوع اللهجة اللغوية وبعض عاداتها في اللباس والطعام وغيرها ، في حين أن عناصر الاشتراك والتقارب هي الغالبة غلبة واضحة كما سيبدو لنا من دراستها .

وتمتاز هذه الأرض التي يسكنها الشعب العربي :

١ — بموقعها المتوسط الممتاز بين القارات والبحار والشعوب واتصال أجزائها .

٢ — بسعتها واشتمالها على أنواع مختلفة من الأقاليم من باردة ومعتدلة ، إلى حارة استوائية ، ومن جبال شاهقة ، إلى سهول منخفضة ، ومن صحارى واسعة ، إلى سهول مزروعة وغابات كثيفة ، وبهذا التنوع يحصل التكامل بين الأجزاء ، ويسهل التعاون والتبادل بين المناطق والأقاليم .

ولكن هذه البلاد العربية المتصلة في أرضها وسكانها ، تنقسم إلى

أقسام سياسية مصطنعة وتتألف من ثلاث عشرة دولة مستقلة هي : (العراق وسورية والأردن ولبنان ومصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية والمملكة العربية السعودية واليمن والكويت) وأخرى تحت الحماية البريطانية كعمان المجاهدة لنيل الاستقلال وقطر والبحرين وأمارات ومشيخات الجنوب العربي ، ومنها أرض عربية محتلة مغتصبة وهي فلسطين .

السكان :

يربو عدد سكان البلاد العربية في أيامنا هذه على ثمانين مليوناً ، أي أنها تأتي في مرتبة الشعوب الكثيرة السكان في العالم . ولكن توزع هؤلاء السكان يختلف في كثافته اختلافاً كبيراً بحسب المناطق ثروة ورقياً . وأما الكثافة العامة الاجمالية فهي قليلة جداً ، ولذلك فان موضوع تحديد النسل الذي بحث واقترح في بعض المؤتمرات الدولية بالنسبة للبلاد العربية أمر خطير جداً لا يقصد منه إلا تقليل سكان المجتمع العربي وإضعافه اقتصادياً وعسكرياً .

تنسب هذه البلاد التي وصفناها وحددناها إلى العرب . ويوصف أهلها كذلك بالعربية ، والشعب الذي يسكنها هو الشعب العربي .

فمن هم العرب ؟ وبم يمكن تمييزهم عن غيرهم ؟ وما هي العوامل الجامعة لهم والرابطة بينهم ؟

لقد كانت الدائرة العربية قبل الاسلام تحدد بحدود الجزيرة العربية مع امتدادات قليلة خارجها في جهات الشام والعراق بسبب هجرة بعض القبائل العربية في ذلك العصر واستقرارها في هذين البلدين . وكانت الجزيرة العربية محاطة من الشمال بأقوام تتصل بالعرب برابطة قديمة من القربى والتجاور وصلات اللغة . وهؤلاء هم الآراميون والكلدانيون والعموريون والكنعانيون والفينيقيون والعبرانيون . وتعرف هذه الأقوام باسم الساميين ، ولغاتهم باللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح . والحقيقة التاريخية تؤكد أن بين هذه اللغات تقاربا وتشابها واشتراكا في النحو والمفردات والحروف ، كما تؤكد تجاور هذه الأقوام في الأرض واختلاطهم واشتراكهم في كثير من عصور التاريخ وفي العقائد الدينية . ويرجح مؤرخو هذا العصر أن المنبع الأصلي لهذه الشعوب هو الجزيرة العربية منها خرجوا في موجات متعاقبة خلال عصور متطاولة في التاريخ وتوزعوا في هذه البلاد القريبة من الجزيرة ما بين العراق والمغرب وحتى حدود بلاد الروم (تركيا حاليا) ولكنهم انتهوا إلى تكوين شعوب يتميز بعضها عن بعض في

اللغة والحياة الاجتماعية والسياسية .

ولكن الحدث التاريخي الهام الذي طرأ على هذه البقعة من الأرض فغير تاريخها وصهرها في قالب واحد ، هو الفتوحات الاسلامية ، ذلك أن هذه الفتوحات التي كان انطلاقها من الجزيرة العربيـة كانت لهـا دائرتان ، إحـداهما واسعة وهي التى بلغها الاسلام حتى عمها جميعاً ، والثانية هي الأصغر ، وهي التي عم فيها الاسلام واستعرب أهلها . ذلك أن سكان هذه البلاد المحيطة بالجزيرة والقريبـة منها كالعراق والشام ومصر والمغرب قد انتشرت فيهم اللغة العربية وامحت اللغات السامية السابقة ، اللهم إلا قليلاً من سكان المغرب الذين بقيت فيهم اللغة البربرية ، ولا تزال ، مع اتخاذهم العربية لغة الثقافة والدين .

وقد ساعد على هـذا التعريب أمور كثيرة : منها انتقال قبائل كثيرة من عرب الجزيرة واستقرارهم في هذه البلاد واختلاطهم بأهلها. ومنها سبق هجرة بعض القبائل اليها قبل الاسلام، ومنها قرب السكان الأصليين من العرب في أصل الجنس واللغة والمعتقدات ، ومنها دخول أكثرهم في الاسلام . وهكذا انتهى الأمر إلى أن يسكن هذه البلاد شعب لغته العربية يرجع أكثره إلى أصل عربي أومستعرب ، ويدين أكثر أفراده بالاسلام ، ويشتركون في ثقافة عربية واحـدة ، وفي تاريخ مشترك قديم وحديث ، ذلك هو (المجتمع العربي) .

المجتمع العربي والعالم الاسلامي

إذا ألقينا نظرة عامة شاملة على البشرية في العصر الحاضر وجـدنا أنها تتألف من شعوب شتى وقوميات متعددة مختلفة ، وانها من جهة أخرى تتـألف من عوالم كبرى يشتمل كل واحـد منها على شعوب عديدة تشترك في بعض المقومات وترتبط ببعض الروابط التي تقرب بينهـا وتجعلها تلتقي عند بعض أهـداف الحياة وقيمها ومثلها . وهـذه الروابط هي روابط الفكرة المشتركة وفلسفة الحياة المتشابهة والعقائد المماثلة أو المتقاربة ، ويزداد التقارب بين الشعوب بازدياد التقارب في الفكرة والمفاهيم والعقيدة . والعالم اليوم ينقسم انقساماً واضحاً إلى :

١ — عالم إسلامي ٢ — عالم شيوعي

٣ — عالم ديمقراطي مسيحي ٤ — عالم وثني

ونستطيع بكل سهولة أن نصور مخطط العـالم الجغرافي ونلون كل عالم من هـذه العوالم بلون خاص ، ونجد حينئذ أن كل واحد منها مستقر في رقعة خاصة به من هذه الأرض ، والغالب أن هـذه الرقعة

متصلة . فالعالم الشيوعي يمتـد فوق آسيا وأوروبا باتصال مابين الصين وروسيا، والعالم الديمقراطي المسيحي يشتمل على أوربا وأمريكا ، والعالم الاسلامي يمتـد من أواسط آسيا حتى أقصى افريقيا غرباً وأواسطها جنوباً. وأما العالم الوثني فينقسم مابين آسيا وافريقيا في رقعتين منفصلتين، وليست الوثنية في الأصل عقيدة واحـدة ولا ديناً واحـداً مع وجود صفات مشتركة بين العقائد الوثنية .

وإذا أردنا أن نحدد موقع العالم العربي من العالم وجدنا أنه يقع في العالم الاسلامي وأنه يرتبط مع شعوب العالم بروابط كثيرة في الماضي والحاضر. أما صلاته بالعالم الاسلامي وشعوبه فهي تتجلى في الأمور التالية :

١ ـ فان بين شعوب العـالم الاسلامي اشتراكاً في النظرة إلى الوجود وفلسفة الحياة ومفاهيمها العـامة ومثلها العليا . وذلك لأن انتشار الاسلام بين هذه الشعوب أوجد بينها وحدة في هـذه المفاهيم المنبثقة عن عقيدة الاسلام وشريعته ونظراته التي تضمنها القرآن والسنة ومصادر الثقافة الاسلامية التي تفرعت عنهما .

وهذه النظرة المشتركة نجدها عند الخاصة والعامة من أبناء هـذه الشعوب رغم مزاحمة النظرات الأخرى الأجنبية لها ، تلك النظرات والفلسفات المستقاة من الثقافة الغربية ، حتى أن التـلاقح بين الثقافتين

أصبح صفة مشتركة بين هذه الشعوب وقد أحدث آثاراً متشابهة وولد مشكلات متماثلة في مجتمعاتها .

وقد ولدت هذه النظرة الاسلامية المشتركة في هذه الشعوب ، ومن بينها الشعب العربي ، مواقف متشابهة أو متماثلة من القضايا المعاصرة والمشكلات الحديثة ، سواء في السياسة وأنظمتها ، أو الاقتصاد ، أو الأسرة والمرأة، أو التربية والتعليم ، أو العادات الجديدة.

٢ – يكون الاسلام وثقافته جزءاً أساسياً من ثقافة هذه الشعوب ، فهي تعتبر دراسة القرآن الكريم ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامي ، وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية ، ثقافة أساسية تعلمها لأبنائها في مختلف مراحل التعليم ، وتحل اللغة العربية مكانة عالية لأنها الوسيلة لفهم هذه الثقافة من مصادرها الأصلية وتسعى إلى تعلمها ونشرها.

وللغة العربية والثقافة الاسلامية في جميع الشعوب الاسلامية مراكز منتشرة ومعاهد ومؤسسات ومدارس من مختلف المستويات والأنواع ، بل إن بعض هذه البلاد كالباكستان والهند يعتبر من أهم مراكز الثقافة العربية والاسلامية بما ألف فيها من كتب قديماً

وحديثاً ، وما نشر في مطابعها ومعاهدها ، وما أنجبت من علماء في الدين واللغة. هذا وإن لغات الشعوب الاسلامية تشترك مع اللغة العربية في الكثير من المفردات وتتفاوت نسبة المفردات العربية في تلك اللغات وتزيد في بعضها على النصف من مفرداتها كما أن بعض هذه اللغات وهي أكثرها انتشاراً تكتب بالأحرف العربية كما هي الحال في الفارسية وهي لغة ايران وأفغانستان واللغة الأدبية لمسلمي الهند وكذلك في اللغة الاوردية لغة المسلمين في الهند والباكستان واللغة الملايوية.

٣ — وتعتبر الشعوب الاسلامية أن تاريخ الاسلام تاريخها الذي تعتز بأمجاده ، وتفتخر بمآثره وآثاره الحضارية وفتوحاته المحررة للبشر من الأساطير والخرافات والعقائد الوثنية والعادات القبيحة ، الناشرة للعقائد الصحيحة والمفاهيم الراقية والمؤسسات العامية والأنظمة العادلة. وترى في أبطال هذا التاريخ أبطالاً للانسانية ، وترى في اشتراكها في هذا التاريخ وفي دخول الاسلام الى بلادها سلماً أو حرباً اشتراكاً في تحرير البشرية وتقدمها وأخذها في طريق الخير والسعادة للانسانية . ويعتبرون الفاتحين الأولين والناشرين للاسلام أعلام هذه المعركة التحريرية وأبطالاً وأنصاراً لله يتقرب اليه بذكر سيرتهم ودراستها .

٤ — إن هذا الاشتراك في العقيدة والثقافة والتاريخ ولد في

نفوس أبناء هـذه الشعوب عواطف متشابهـة ، ومواقف في الحياة متجانسة ، وآمالاً وأهدافاً مشتركة ، سواء أكانت هـذه الأهداف نظرية مثالية كانتشار عقيدة التوحيد والإيمان بالله تعالى وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً إلى العالمين ، وبالقرآن كتاباً إلهياً ودستوراً للحياة ، أم كانت عملية كتحرير فلسطين من أيدي الصهيونيين الآثمين ، وتحرير البلاد العربية والاسلامية من الاستعمار ، ولذلك كانت مواقف أكثر حكومات هـذه الشعوب في القضايا الدولية مواقف طيبة في نصرة الحق في جميع القضايا العربية والاسلامية ، إلا بعض الحكومات التي تأثرت بالاستعمار والصهيونيـة العـالمية تأثراً كبيراً غلب على تـأثير شعوبهـا ، والعبرة على كل حال للشعوب لا للحكومات في هـذا الموضوع . وإن اندونيسيا والباكستان والأفغان ، وهي أكبر الدول الاسلامية ، مع مجموعة الدول العربية ، كانت إلى جانب البلاد العربية في جميع القضايا الدولية ، وفي مقـدمتها فلسطين والجزائر أثناء نضالهما في سبيل الاستقلال . أضف إلى هذا ماتكنه هذه الشعوب من محبـة بالغة عميقة وتعظيم وتقدير كبير للشعب العربي الذي تعتبره مصدر الخير السعادة ، لأن الاسلام ظهر في أرضه ، ونزلت آياته بلغته ، وكان الرسول العظيم والمنقذ للبشرية ﷺ من أبنائه .

٥ ــ وقد أوجد الاسلام بتعاليمه العملية ، وأحكامه المتعلقة بأمور

الحياة ، من طعام وشراب ولباس وتنظيم للمعاملات وللأسرة ، عادات متشابهة جداً في جميع هذه الميادين ، ذلك أن المسلم يراعي في طعامه أحكام الشريعة فيما يؤكل وما لا يؤكل، وكذلك في استعماله للأشياء وفي حكمه عليها حسناً وقبحا . كما أن تنظيم الزواج والطلاق والارث وعلاقات أفراد الأسرة المادية والمعنوية تدخل في نطاق أحكام الاسلام ويطبقها المسلمون فعلاً . ولذلك نشأت في الشعوب الاسلامية عادات متشابهة في حياتهم اليومية ، في حياة الفرد والأسرة في البيت وفي المجتمع وعلى اختلاف ألوانهم وأشكالهم وبيئاتهم . **وهذا الاشتراك في العادات اليومية العملية** . إذا أضفته إلى **تلك الروابط المشتركة في العقيدة والثقافة والتاريخ** ، وجدت نفسك أمام شعوب تتقارب وتتشابه وتتعاطف وتتعاون ، أو قل إن بينها من أسباب الحياة المشتركة والصفات المتشابهة والاتجاه المتقارب ما يسهل تعاونها ويمهد لاشتراك أوثق ويجعلها في موقف تختلف عنه بقية الشعوب التي لا تشترك معها في هذه الأمور الحيوية وفي هذه المجالات . وان الذي ينكر هذه الحقيقة ويتجاهلها إما أن يكون ذا فكرة سابقة خاطئة لا تمكنه من التجرد والحكم الموضوعي ، وإما أن يكون مدفوعاً بهوس خاص ، أو أن يكون هدفه الكيد للعرب والعمل لاضعافهم ومحاربة الاسلام بدافع استعماري أو تعصبي ذميم .

العوالم الاخرى

يجاور العالم الاسلامي ويحيط به عوالم أخرى يجمع بين أجزاء كل منها ، على اختلاف الشعوب التي تتألف منها ، حضارة واحدة أو متشابهة وثقافة مشتركة ، أو على الأصح مفاهيم وعقائد مشتركة ، فهي ليست تكتلات سياسية فحسب وإنما هي مجموعات حضارية وعقائدية ، وهذه العوالم هي :

١ — العالم المسيحي الديموقراطي :

وهو العالم الذي يتكون من أكثر بلاد أوربا ومن أمريكا وتقوم فيه حضارة واحدة في أصولها التاريخية وعناصر تركيبها ومفاهيمها الحاضرة ومستواها الاجمالي . فهي كلها تستقى من الديانة المسيحية ومن الثقافة اليونانية القديمة وما لقحت به من الحضارة الاسلامية ، وما نشأ عن تفاعل هذه العناصر في الحضارة الحديثة من صناعة كبرى ونظم اقتصادية كانت في الأصل رأسمالية ثم عدلت بالاقتصاد الموجه الاشتراكي ، ومن مفاهيم عن الحرية والديمقراطية . ولهذا العالم صلات عديدة متنوعة ، قديمة وحديثة سلمية وغير سلمية ، بالعالم الاسلامي ومنه العالم العربي فمن هذه الصلات :

١ ــ الصلة الثقافية : فقد كانت الفلسفة اليونانية مشتركة بينهما كما أخذت أوربا عن العالم الاسلامي كثيراً من نظريات علم الكلام والعلوم المادية كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء . ثم كانت الصلة الثقافية الحديثة حين أخذ العالم العربي والعالم الاسلامي جميعهما عن أوربا ثقافتها وعلومها في القرنين الأخيرين. ويضاف إلى ذلك ما بين الاسلام والنصرانية من مفاهيم دينية مشتركة في الأصل .

٢ ــ الصلة الاقتصادية : وبين العالمين صلات تجارية قديمة ، ولكنها ازدادت في العصر الحديث زيادة كبيرة .

وهذان النوعان من الصلات أحدثا تأثيراً كبيراً واشتراكاً في المفاهيم والعادات الاجتماعية .

٣ ـ الصلة الحربية : بين العالم المسيحي الديمقراطي والعالم الاسلامي ومنه العالم العربي صلات حربية عدائية ، بدأت بالحروب الصليبية ثم انتهت إلى الحروب الاستعمارية ، ثم إلى الوضع الاستعماري الذي استمر مدة طويلة وأحدث جفاء وعداء بين العالمين الاسلامي والغربي ولا تزال بقاياه موجودة قائمة. وإن كانت أكثر البلاد العربية والاسلامية قد استقلت وتحررت ، فقد بقي قسم قليل منها لم يتحرر ، وبقي بعضها في النفوذ الاستعماري أو المطامع الاستعمارية . وقد سببت هذه

الصلات العدائية اتجاهاً ثقافياً معادياً للاسلام ، ينحرف عن البحث العلمي المجرد وعن الأمانة العلمية في سبيل تحقيق فكرة استعمارية ، أو جرياً مع التعصب على الاسلام . وقد كانت هذه النزعة في العصر الماضي أشد مما هي عليه الآن ، ومع ذلك فقد وجد من الباحثين والمستشرقين من تجرد عن الهوى والعصبية ، أو حاول هذا التجرد ، فانصف العرب والاسلام في أبحاثه ومؤلفاته بقدر ما تسمح به بيئته وثقافته .

وينبغي أن لاننسى أن لليهود ، وهم منبثون في جميع أجزاء العالم المسيحي ولهم في كل بلد نفوذ وأثر كبير ، نصيباً أساسياً في إبقاء هذه الروح العدائية عن طريق العلم والسياسة والصحافة والنشر .

وان مستقبل العلاقات بين العالمين الاسلامي ومنه العربي ، والأوربي المسيحي مرهون بتصفية الاستعمار وبناء العلاقات السياسية والاقتصادية على أساس المساواة والمصالح المتبادلة ، ومرهون كذلك بتصفية الروح العدائية المتعصبة التي ينظر الغرب من خلالها إلى عالمنا العربي والاسلامي وعلى أساسها يسير في أبحاثه العلمية وماينشره في صحفه ومجلاته ومؤلفاته ولا شك أنه سيجد حينئذ في الصلات القديمة بين الثقافة العربية واليونانية والرومانية منذ عصور طويلة ، وفي المفاهيم الدينية المشتركة

والمختلفة عن الديانات الوثنية والنظريات الالحادية ، سيجد في ذلك كله وفي مجالات الاقتصاد والصناعة أسباباً للتعاون الشريف القائم على المساواة والعدالة والحق .

٢ – العالم الشيوعي :

وهو عالم يتكون حالياً من جزء انسلخ من العالم المسيحي الغربي وجزء آخر في آسيا كان من العالم الوثني وجزء من العالم الاسلامي الأوربي والآسيوي . يختلف هذا العالم عن المجتمع العربي وعن العالم الاسلامي اختلافاً جوهرياً أساسياً من حيث فلسفته وعقيدته ومفاهيمه فالأساس الفلسفي الاعتقادي الذي تقوم عليه الشيوعية هو المادية المنافية للعقائد الدينية منافاة تامة . والاسلام هو الأساس الفلسفي الاعتقادي لمجتمعات العالم الاسلامي ، وبين الاسلام والفلسفة المادية تنافر واختلاف أساسي .

يضاف إلى ذلك أن في داخل العالم الشيوعي شعوباً إسلامية فرض عليها النظام الشيوعي والعقيدة الشيوعية . والعالم الاسلامي يعتبر هذا الحادث خسارة كبرى وضربة شديدة للاسلام مهما حاولت الدول الشيوعية أن تخفف من ألم هذه الضربة بفسح المجال للمسلمين بعد الحرب العالمية الثانية أن يمارسوا شعائرهم الدينية الخاصة ، وذلك دون

أن يغيروا من موقفهم الأساسي من الدين الذي يعتبرونه خرافة ومخدراً للشعوب .

أما الصلات العامية بين العالم الاسلامي والشيوعي فهي تتأثر أولاً بما كانت عليه الصلات مع روسيا السابقة الأرثوذكسية المذهب والصين البوذية سابقاً ، وتتأثر بوجه خاص بالأوضاع السياسية والدولية لكل بلد من البلدان الاسلامية وبسياسة الاتحاد السوفيتي والصين من جهة أخرى . فبعض البلاد الاسلامية اتجهت مع محاربة الاستعمار الغربي الذي كانت تتلظى بناره نحو الحياد وعدم الانحياز وبالتالي إلى العلاقات الحسنة مع الاتحاد السوفيتي لتستعين بهذه الصلة الحسنة لصد عدوان المعسكر الآخر ، وللاستفادة من الامكانيات الاقتصادية والحربية التي تتيحها الدول الاشتراكية للدول الناشئة أو المتحررة من الاستعمار . وقد أمكن السير في هذه السياسة بسهولة في البلاد الاسلامية ، لأن الاسلام يجيز من الوجهة الخارجية أن تهادن الدول الاسلامية دولة أخرى ولو كانت عقيدتها مخالفة للاسلام وللاديان السماوية إذا وجدت في ذلك مصلحة لها، وفي صلح الحديبية في السيرة النبوية مايؤيد ذلك.على أن العلاقات بين العالمين الاسلامي والشيوعي من العسير أن تتعدى هذه المرحلة من العلاقات الاقتصادية

والخارجية لما بينهما من تباين تام في الأساس الاعتقادي، بل من حرب بين فكرتين ، إحداهما دينية تحارب الالحاد ، والثانية إلحادية تحارب الدين ، وإن وجود أحزاب شيوعية في داخل البلاد الاسلامية مما يزيد العلاقة بين العالمين جفاءً وبعداً . لأن الشعوب الاسلامية تقف من هذه الأحزاب موقفاً عدائياً بدافع من دينها وعقيدتها ، والمجتمع العربي يقف كذلك هذا الموقف نفسه ، وهذا قد يسبب بطريقة غير مباشرة شيئاً من الاستياء على الأقل في المراكز الشيوعية العالمية الموجودة في داخل البلدان الشيوعية . ولذلك كان حسن الصلة بين العالمين مرهوناً بوقوف العالم الشيوعي موقف الاحترام لعقائد البلاد العربية والاسلامية وعدم المساس بها وقطع كل صلة ظاهرة أو خفية مع أي هيئة أو حزب في داخل هذه البلاد ، وإعطاء الحرية الدينية الكاملة للشعوب الاسلامية التي تعيش في ظل الحكم السوفيتي أو الصيني.

٣ — العالم الوثني الآسيوي والافريقي :

أما صلة العالم الاسلامي بالعالم الوثني فانها تختلف من شعب إلى شعب ، ذلك لأن بعض الشعوب الوثنية لم يحصل بينها وبينه عداء أو حروب كما هي الحال مثلاً في سيلان وفي بورما وفي بعض شعوب افريقيا. وبعضها حصل بينها وبين الشعوب الاسلامية خصومة أو عداوة كما

هي الحال في الهند بين الهنادك والمسلمين .

ومن هذه الشعوب الوثنية من تفتح أبوابها للاسلام فينتشر بينها كما هو واقع في افريقيا .

والعالم الوثني لايؤلف وحدة مترابطة ، بل هو مؤلف من شعوب عديدة في آسيا وأفريقيا تدين بعقائد متشابهة أوذات طبيعة وخصائص متقاربة ففي كل منها مثلاً حيوان مقـدس أو أكثر ، وفيها تقديس لتماثيل وحجارة خاصة . وفي العالم الوثني كتلتان أو دينان كبيران وهما البوذية المنتشرة في الصين والهند الصينية (بورما ، تايلاند ، كمبوديا) والبرهمية بفروعها المنتشرة في الهند .

وتغزو هذا العالم الوثني ثلاثة تيارات أو اتجاهات ، أحدها المسيحية ببعثاتها التبشيرية ، والاسلام بانتشاره الطبيعي ولا سيما في أفريقيا ، والفلسفات المادية الحديثة على اختلاف صورها . وصلة المجتمع العربي والشعوب الاسلامية الأخرى بهذا العـالم في المستقبل إنما تكون بحسب اتجاهه الفكري والعقائدي من جهة ، ومواقفـه السياسية من جهة أخرى من القضايا العربية والاسلامية .

القبيلة . القومية . الانسانية

لابد لنا قبل بيان العوامل المؤثرة في تكوين القوميات والعوامل التي تكون الأمة وبيان مدلول الأمة والقوم والشعب والقومية من إلقاء نظرة تاريخية عامة تعرفنا أشكال المجتمعات البشرية واتجاهها في التطور .

يبدو للناظر في الحياة البشرية أن القبيلة هي المرحلة الأولى التي مرت البشرية بها ولا يزال بعضها يمر بها حتى اليوم ، وإن القبائل التي ترجع إلى أصل واحد وتعيش متجاورة في أرض واحدة وتتحدث بلغة واحدة أو لهجات متقاربة ، يزداد الاشتراك بينها في شؤون الحياة وتكثر الصلات ويقوى التعاون حتى تؤلف شعباً واحداً أو قوماً . كذلك نشأت الأقوام المعروفة من عرب وأتراك وهنود وروس وانكليز وإيطاليين وألمان مثلا . ولا تزال معالم الحياة القبلية ورواسبها باقية في كثير من الشعوب الراقية حتى اليوم ، لا يعرفها إلا أبناء تلك الشعوب ومن خالطهم مخالطة طويلة وعرف دخائل حياتهم ، على أن

القوم قد يتكون من مجموع شعوب صغيرة متقاربة ، وكل شعب يتكون في الأصل من مجموع قبائل تقاربت وانصهرت. إن قطع هذه المرحلة من القبيلة إلى القومية لا يتم في وقت واحد في جميع البشرية ، فان بعض الشعوب قطعتها من زمن قديم كالعرب والفرس ، وبعضها حديثة العهد بها كأكثر شعوب أوربا التي تكونت في خلال هذه القرون الماضية القريبة ، وبعضها لم تجتز بعد هذه المرحلة .

في المرحلة القبلية تكون القبيلة هي الاطار الوحيد لنشاط الأفراد وفعالياتهم ، ويكون الارتباط داخل هذا الاطار وثيقاً والتضامن شديداً إلى حد العصبية ، وتكون العلاقة فيما وراء القبيلة معدومة أو ضعيفة أو سلبية ، وحينما تنتقل القبائل إلى مرحلة تكوين شعب واحد تنشأ بين أفراد القبائل المتقاربة صلات من التعاون تزداد قوة مع الأيام ، وتقل العصبية داخل القبيلة لتخلي مكانها لهذه الصلات الجديدة الناشئة. على أن العاطفتين القبلية والقومية تعيشان معاً مدة طويلة وربما حصل بينهما صدام ونزاع خلال عصور طويلة إلى أن يتم انصهار القبائل في قومية واحدة .

وتبدأ القومية كذلك حياتها كما بدأت القبائل في دائرة مغلقة وفي شعور من التضامن الشديد داخل القومية وشعور من العداء أو

السلبية لما هو خارج القومية ، هو شعور بأن الآخرين (غرباء) و (أجانب) مع ما كانت تحمل هذه الألفاظ من معنى الوحشة والبعد والجفاء إذا لم تحمل في ذاتها معنى الكره والبغض والعداء .

وهكذا تكونت في البشرية أقوام وشعوب خلال عصور التاريخ ولا تزال هـذه العملية الاجتماعيـة ، عملية تكوين الشعوب سائرة في طريقها ، فان بعض الأقوام تتكون في هذا العصر وبعضها سائرة نحو التكوين آخذة في الانتقال من القبلية إلى القومية وفي تحديد معالم مجتمعها الجديد وانصهار عناصره ، ويعين على ذلك نشوء إطـار سياسي كما هي الحال في بعض الشعوب الافريقية التي تتحدد معالم قومياتها في العصر الحاضر ويساعدها على ذلك نشوء دول مستقلة تحررت من الاستعمار ، وفي اطارها ستتفاعل العوامل وتنصهر القبائل . وإن وحدة المانيا السياسية هي التي أتمت وأكملت انصهار أجزائها وقبـائلها القـديمة في قومية واحدة ، ونشوء دولة يوغوسلافيا بعد الحرب العـالمية الأخيرة ساعد على ظهور معالم القومية السلافية التي لم يتح لها في التاريخ أن تكون مجتمعة موحدة مستقلة فقد كانت مجزأة وتابعة لدولة أخرى أو لأكثر من دولة .

وتتفاعل أجزاء الشعب الواحد أو القومية الواحـدة خلال عصور

التاريخ بسبب الاشتراك في الأرض والأصل واللغة والمصالح والتاريخ والمعتقدات والعادات وكلما كانت عوامل الاشتراك هذه أكثر شمولاً وامتداداً وأعمق وأقوى وأدوم على الزمن ، كان ارتباط أبناء الشعب وتضامنهم أقوى وكان ظهور هذه القومية بمظهر الجسم الواحد ذي الحياة الواحدة أجلى وأوضح .

ولكن التطور البشري لم يقف عند هذا الحد فان تكاثر عدد البشر في كل شعب ونمو الحياة وازدياد الفعاليات البشرية أدى إلى اتصال الشعوب بعضها ببعض ونمو العلاقات السلمية بينها سواء في ميدان التجارة والاقتصاد أو في ميدان الأفكار والمعتقدات أو في مجال العلم والثقافة .

ولا شك أن الاتصال بين الشعوب كان على مراحل طويلة بدأت بالخروج عن الانعزال وحدوث علاقات ولو كانت حربية ، فان الحرب نفسها صلة بين متحاربين يتأثر أحدهما بسلاح الآخر وطريقته في التفكير وهي صلة تنتهي بالهدنة والسلم ، والسلم يؤدي إلى نوع آخر من الصلات .

وهنا بدأت مرحلة جديدة هامة في تاريخ البشرية وهي مرحلة الاتصال بين الشعوب والأقوام ، ونشوء صلات إنسانية مشتركة

بينها ، وتكوين صعيد تلتقي عليه في ميادين الفكر والدين والاقتصاد والعادات وغير ذلك من نواحي الحياة ، فاشتركت شعوب وقوميات عديدة في عادات مشتركة أو في دين واحد أو في طرائق الحياة الاجتماعية أو السياسية ، وتطورت العلاقة القديمة التي كانت علاقة التضامن إلى حد العصبية داخل القومية الواحدة وعلاقة العداء خارجها إلى علاقة مزدوجة فهي تضامن في الداخل وتعاون في الوقت نفسه في الخارج على الصعيد الانساني ، وسار التطور البشرى في اتجاهه نحو توسيع هذا الصعيد امتداداً وعمقاً ولا يزال يسير في هذا الاتجاه سيراً لا يقف عند حد .

ومن الطبيعي أن يكون هذا التعاون أوثق وأقوى بين الشعوب المتقاربة في الأرض المرتبطة بأنواع من الصلات المشتركة كالاشتراك في الدين والاعتقاد أو في اللغة أو في التاريخ أو في الثقافة أو في غير ذلك من أسباب الاتصال والاشتراك، وكلما تعددت أسباب الاتصال وتداخلت وتظاهرت وتعاونت ، كان الصعيد المشترك بينها أوسع وأعمق والصلة بينها أوثق وعواطف المودة أقوى ومجالات التعاون أكثر .

فالصعيد المشترك بين الانكليز والأمريكيين بسبب الاشتراك في

اللغة والثقافة ، والصعيد المشترك بين البلدان الشيوعية بسبب وحدة العقيدة والنظام ، والصعيد المشترك بين شعوب العالم الاسلامي بسبب وحدة العقيدة والمفاهيم والاشتراك في بعض نواحي الثقافة والتاريخ ، تجعل كل مجموعة من هذه الشعوب تشترك في أمور لاتشترك فيها مع الشعوب الأخرى ، وتتميز عنها وتستطيع أن تحقق من أسباب التعاون ما لاتستطيعه مع غيرها على الصورة نفسها .

وهكذا فاننا نرى في البشرية نزوعاً إلى الخارج بدءاً من نقطة الانطلاق الأولى ، وكل ما تكسبه في المرحلة الأولى تضيفه إلى ما بعدها ، فالتعاون في داخل القبيلة والتضامن إلى حد العصبية هو الذي انتقل فيما بعد إلى تعاون وتضامن داخل الشعب الواحد ، فلئن خسر جزءاً منه في داخل القبيلة ، وهو جزء العصبية المفرطة ، فقد ربحه وأضافه إلى المرحلة الثانية ، مرحلة التعاون في داخل القومية الواحدة ، وما خسره كذلك من العصبية القومية التي هي أكثر من التعاون والتضامن أضافه إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة التعاون الانساني بين أبناء القوميات والشعوب .

ويبدو لنا أن البشرية آخذة نحو تكوين كتل حضارية تتألف كل واحدة منها من عدد من الشعوب أو القوميات التي تشترك في عوامل

كثيرة ، كالمعتقدات والمفاهيم والتشريعات والنظم والثقافة والعادات ، سواء أشتركت في تنظيم سياسي واحد ، أي في دولة واحدة ، أو في اتحاد دول ، أو في دولة اتحادية ، أم لم تشترك . وتتفاعل هذه الشعوب المشتركة في حضارة واحدة في داخل اطار هذه الحضارة وتتعاون في مجالات كثيرة ، وتزداد بينها عواطف الإخاء والمودة والمحبة ، وتشتد الرغبة في التعاون في أهداف الحياة وغاياتها والرغبة في إقامة حياة مشتركة خصبة عميقة تنسق فعاليات الشعوب المشتركة فيها وتستفيد من مختلف مزاياها وخصائصها وتنوع طاقاتها وإمكانياتها وإنتاجها المادي والمعنوي. ثم تلتقي الحضارات أو الكتل الحضارية في صعيد مشترك كذلك وتتعاون في مجالات مشتركة وتختلف في مجالات أخرى غيرها . كل هذا يجري دون أن تذوب الأقوام والشعوب . بل تحتفظ بذاتيتها وتتعاون مع غيرها . فان ظاهرة انقسام البشرية إلى أقوام يبدو أنها ظاهرة باقية غير زائلة ، وإنما الذي يزول هو العصبية القومية ، كما زالت العصبية القبلية والأنانية الفردية المفرطة من قبل ، ولكن القوميات كوحدات اجتماعية يبدو أنها باقية ، وقد يكون في بقائها الخير كبقاء ذاتية الأفراد في المجتمع الواحد . فان من سنن الله تعالى في الكون تعاون الأنواع المختلفة والأجناس المتباينة ، ومن اختلاف خصائص

الأفراد ومواهبهم وتنوع إنتاجهم ينشأ المجتمع ويتكامل، ومن اختلاف الشعوب والأقوام وتعاونها على اختلاف مواهبها وخصائصها وإمكانياتها تنشأ الحضارة الانسانية وتتكامل . وإنما المهم هو اتجاهها جميعاً نحو التعاون الانساني على أساس من العدالة والمساواة في الكرامة الانسانية .

. . .

نستطيع بعد هذه النظرية التطورية التاريخية التي قدمناها أن نحدد مفاهيم بعض الألفاظ المستعملة فى هذه الأبحاث :

فالقوم هم جماعة بشرية نشأت من اندماج قبائل ترجع إلى أصل واحد أو أصول متقاربة وتسكن أرضاً واحدة ولها لغة واحدة .

والقومية هي هذا المجتمع القومي بجميع عناصره المادية والمعنوية من أرض ولغة ومعتقدات ومفاهيم وأخلاق وثقافة وحضارة في حاضره وماضيه . فالقوم هم أفراد البشر الذين تجمعهم هذه الروابط كلها أما القومية فهي القوم مع جميع العوامل الحية المشتركة فيما بينهم والتي جمعت بينهم المادية منها والمعنوية على تعاقب العصور وتوالي الأجيال .

والشعب تطلق على القوم وتطلق على مادون ذلك أحياناً ، فيقال : الشعب العربي ، والشعب الفارسي ، والشعب الروسي ، ويقال أيضاً

الشعب الجزائري ، والشعب السوري ، بل قد يقال الشعب الدمشقي والبغدادي .

الامة

إذا عملت عوامل التوحيد والصهر والانسجام في شعب من الشعوب كالاشتراك في اللغة والحياة المشتركة الطويلة أي التاريخ والثقافة والمعتقدات والمبادىء والأفكار والعادات والأخلاق ، تألف منه وحدة اجتماعية حية نسميها أمة ، والحالة الطبيعية الغالبة أن يكون لهذه الأمة كيان سياسي واحد يحفظها أي أن تؤلف دولة .

إن الخاصة الأساسية المميزة للأمة هي وجود رغبة عامة في الحياة المشتركة أي تحقق الانسجام بين أفرادها حتى يتكون من المجتمع وحدة حيوية يمكن أن نسميها أمة .

إن وجود عدد كبير من البشر يعيشون في أرض واحدة أو بلد واحد لا يجعل منهم أمة ولا مجتمعاً يشعر بوحدته وتميزه من غيره إذا لم تؤلف بينهم عوامل مشتركة عديدة مادية ومعنوية ، وإذا لم توجد هذه العوامل المقربة الموحدة كان بين أفراد هذا المجتمع وكتله وأجزائه تباعد وتنافر ولو سكنوا أرضاً واحدة وتكلموا بلسان واحد وانتسبوا إلى أصل واحد .

ولكن تحقق الانسجام بين أفراد المجتمع وأجزائه وتأليفه لما سميناه وحدة اجتماعية حية يمكن أن يتم على مستويات مختلفة أو في مراحل عديدة من التطور البشري الذي وصفناه آنفاً فيمكن أن يتم في قبيلة كبيرة بدافع الارتباط النسبي الدموي وفي القومية الواحدة أو الشعب الواحد بتأثير مجموعة من العوامل المادية والمعنوية وفي نطاق اجتماعي أوسع من القومية كأن تؤلف مجموعة من الشعوب كتلة حضارية عقائدية واحدة سواء جمعتها دولة واحدة أو اتحاد دول أو لم تجمعها ، وذلك بأن تتحقق الرغبة بين أبناء هذه الشعوب في الحياة المشتركة ويتحقق الانسجام بينها بسبب الأخذ بفلسفة واحدة ومفاهيم واحدة في الحياة وبالتالي بنظم وعادات واحدة ، ويمكن أن نضرب على ذلك مثالاً من التاريخ الحديث والقديم . فمجموعة الشعوب التي تعيش في إطار الاتحاد السوفيتي هي قوميات عديدة ، فاذا كانت الشيوعية قد تغلغلت فيها ونفذت إلى أعماقها حتى صهرتها في بوتقة عقيدتها ومفاهيمها ونظمها حتى أصبحت تصدر كلها في تفكيرها وعواطفها وحركاتها الاجتماعية والسياسية بوحي من هذه العقيدة وبدافع منها فقد تم الانسجام والرغبة في الحياة المشتركة وتم

كذلك تأليف وحدة اجتماعية حية وكوّنت أمة. وكذلك الشعوب التي دانت بالاسلام في عصره الأول فقد أخذت بفلسفة واحـدة في الحياة لها مفاهيمها واتجاهاتها فعملت متعاونة على إنشاء حضارة واحدة هي الحضارة الاسلامية ساهم فيها كل منها باتجاهه حسب قدرته وطاقته وإمكانياته وكانت لهم اتجاهات واحدة في الحياة واعتقدوا بقيم واحدة في الحياة واتخذوا من العادات والانظمة الاجتماعية مايتناسب مع تلك القيم والمبادىء ويتفرع عنها، وكانت لهم كذلك ثقافة واحدة أساسها القرآن الكريم والتراث النبوي أو السنة وما أضيف اليها من فهوم ونظريات في الأجيال المتعاقبة ومن الثقافات الأجنبية المقتبسة، وكانت لغة هـذه الثقافة اللغة العربية ، وجمعتهم كذلك في بعض الفترات التاريخية دولة واحـدة ، وكان لهم حتى في حال انقسامهم الى دول تاريخ مشترك .

ألا يحق لنا بعـد هـذا كله أن نسمي هـذه الكتلة الحضارية التي تؤلف وحدة اجتماعية منسجمة في ذلك العصر أمة ولو كانت مؤلفـة من عدة شعوب ؟

إن في تثبيت مدلول الأمة في شكل من أشكال تطور المجتمعـات البشرية جموداً في الفكر ومحاولة لتثبيت حقيقة حية متحركة متطورة

ونظرة إلى الحياة الاجتماعية على أساس ركودها وسكونها .

ويتبين مما تقدم أن بين القومية والأمة تداخلاً واختلافاً في آن واحد فالقومية يمكن أن تؤلف أمة إذا تم لها النضج وتجاوزت المرحلة الابتدائية وتحقق فيها الانسجام ، كما يمكن أن تؤلف أكثر من أمة إذا انقسمت إلى قسمين مختلفين في فلسفة الحياة ومفاهيمها اختلافاً لا التقاء معه .

فالهند في الأصل قومية واحدة وجنس واحد ، ولكنها بسبب اختلاف النظرة إلى الحياة بين الهنادك والمسلمين اختلافاً كلياً يصعب معه الالتقاء لاتجاه كل من الفريقين إلى إنشاء حياة وحضارة تختلف عن حياة الآخرين في مبادئها ومفاهيمها وأسسها في العادات الاجتماعية والمفاهيم الأخلاقية ، كان انقسام الهند وهي قومية واحدة إلى وحدتين اجتماعيتين ، أي إلى أمتين أمراً طبيعياً ، ومما يلاحظ أن الهند والباكستان تتجهان اتجاهين مختلفين في اللغة وسائر مقومات الحياة ، فبينما تعتبر الباكستان الفتح العربي تحريراً للهند من وثنيتها وجاهليتها وتقدس أبطال هذا التحرير ، ترى الهند فيه استيلاء واستعماراً ، وتقدس أبطالها الهندوكيين الذين تشتمل عليهم أساطيرها القديمة وخرافاتها الوثنية وتاريخها القديم ، ولذلك تطرد الهند الحروف العربية والكلمات

العربية من لغتها وتستبدل بها الحروف والألفاظ السنسكريتية ، في حين أن الباكستان تحتفظ بالحروف العربيـة وتستزيد من الألفـاظ العربية وتراودهـا فكرة اتخـاذ العربية لغة رسمية ، ويدعو إلى ذلك فريق من رجالها .

وهذا كله يجعلنا نعتقـد اعتقاداً جازماً أن الهند والباكستان ستنتهيان إلى تكوين أمتين مختلفتين متميزتين ولو أنهما كانتا شعباً واحداً وقومية واحدة .

عوامل تكوين الامة

إن وحدة المشاعر التي تجمع أبناء الأمة الواحدة والشعور بالتضامن والرغبة في الحياة المشتركة إنما تكون نتيجة لأسباب وعوامل أثرت في تكوينها وإيجاد هذه الوحدة والاشتراك والتضامن والتميز من غيرها ، وهي نفسها العوامل التي تكون سبباً في استمرار الوحدة والارتباط فيما بين أبناء الأمة الواحدة .

ومن المهم قبل أن نبسط هذه العوامل أن نشير إلى أمر هام جداً في هذا الموضوع : ذلك أن هذه العوامل يختلف تأثيرها قوة وضعفاً بحسب المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة في التطور البشري فقد كان تأثير الأرض وطبيعتها في بداية حياة البشر قوياً وعميقاً ولكن هذا التأثير يأخذ في الضعف كلما تحرر الانسان من سلطان الطبيعة وغدا هو الذي يغير الأرض ويقاوم تأثيرها ويحول دون عوارضها المختلفة ، وكذلك الدم والجنس ووحدة الأصل فان هذا العامل كان له تأثير قوي في تضامن الذين يربط بينهم الدم والجنس ، وكان هذا التضامن

شديداً يصل إلى حد العصبية في داخل القبيلة ثم داخل القوم الواحد الذين ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون إلى أصل واحد ، ولكن هذه العصبية الدموية يخف تأثيرها كلما تقدمت الأمة ويحل محلها تدريجياً عوامل معنوية أخرى كالثقافة والمعتقدات والدين والمبادىء الخلقية والتقاليد والعادات . إن هذه النظرية التطورية هي التي يهملها أكثر الباحثين إذ ينظرون إلى العوامل المؤثرة في الامة نظرة جامدة ثابتة ويناقشون هذه العوامل ويوازنون بينها من حيث القوة والضعف ويضربون لذلك أمثلة متنوعة من مراحل تاريخية متفاوتة فيضلون بذلك السبيل إلى الحقيقة .

إن الاتجاه في تطور العوامل المؤثرة في تكوين الأمة والربط بين أفرادها من حيث القوة والضعف آخذ بالانتقال من العوامل المادية كالأرض والجنس أو العرق إلى العوامل المعنوية كالثقافة والمعتقدات الفكرية والدينية كلما ارتقت الحياة البشرية وتقدمت وتطورت مع الزمن . ولنأخذ في استعراض هذه العوامل ومناقشتها :

١ — الارض :

إن واقع الحياة أن لكل شعب من الشعوب أرضاً نشأ وترعرع

فيها واستثمرها وأقام عليها حياته وحضارته فأحبها وتأثر في طراز حياته بطبيعتها ، وكانت حياته الأولى تفاعلاً فيما بينه وبين الأرض ، ولذلك فان شكل الأرض وطبيعتها وموقعها وحدودها ومواردها تؤثر في أسلوب المعيشة التي يحياها السكان وفي نوع فعاليتهم من زراعية أو صناعية أو تجارية ، وهي كذلك التي تعزل الشعب الذي يسكنها عن غيره من الشعوب بحدودها الفاصلة أو تخلطه بحدودها المفتوحة وبما يحيط بها من بحار أو يخترقها من أنهار ، إن ذلك كله يؤثر في تكوين طبيعة الشعب ومزاجه وصفاته وخصائصه في بداية تكوينه ، فيكون مجداً أو كسولاً وذكياً أو بليداً ومغامراً أو مخلداً إلى الأرض، سريع الانفعال أو هادئاً ، ميالاً إلى العمل اليدوي أو الفكري ، ضيق الخيال أو واسعه ، منقبضاً منطوياً على نفسه أو منبسطاً مفتوح الأفق إلى غير ذلك من الطباع التي تكونها الحياة بأسلوبها وطريقتها وبتفاعل الانسان مع الطبيعة واختياره للمعيشة أسلوباً خاصاً وطريقاً محدداً يتناسب مع طبيعة الارض التي يسكنها واستمرار ذلك قروناً متطاولة .

لاشك أن الارض ذات تأثير في الطور الاول لحياة الشعوب في تكوين طباع متشابهة وصفات متقاربة في سكانها وبذلك تكون

الوعاء الجامع لهم الذي ينضج طباعهم وخلقهم ، ولكن تأثيرها ينقص بالتدريج كلما نمت الحياة الانسانية فوقها وعملت يد الانسان وعقله في تكييفها وفي رد عوارض الطبيعة وحماية نفسه منها ويتحرر بالتدريج من تأثير الارض . وقد كان تطور المواصلات على اختلاف أنواعها في داخل الشعوب وفيما بينها ونمو الحياة الفكرية والاديان العالمية سبباً في سلب الارض ما كان لها على الانسان من سلطان ونفوذ ولهذا لم تعد الارض إلا قاعدة ومسكناً للأمة وعنصراً مادياً لابد منه دون أن يكون السبب الجامع لابناء الامة والرابط الاساسي فيما بينهم ولا العامل الاقوى في حياتهم ، بل ان الارض انقلبت إلى عنصر معنوي يتجلى في حب الارض أو الوطن والحنين اليها والدفاع عنها على اعتبار انها مثوى ذلك الشعب الذي يعيش فيه ومثوى الآباء والاجداد والارض التي قام عليها تاريخ الامة وحضارتها والتي تشيد عليها في الحاضر حياتها وحضارتها .

ويحضرنا في هذه المناسبة الحديث القائل (من بدا جفا) أي من عاش في البادية ظهر الجفاء في طبعه ، وتقدير الله تعالى في أن يعيش بنو إسرائيل أربعين سنة أي جيلاً كاملاً في الصحراء يتيهون فيها . كما يجدر بنا أن نذكر قول الرسول ﷺ حين غادر مكة مهاجراً :(والله

إنك لأحب البلاد إليّ) ، واقتران حب الارض في القرآن بحب النفس « اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » واقترانها في موضع آخر بالدين «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » وكل ذلك يدل على تأثير الارض وعلى أن فطرة الانسان التي فطره الله عليها حب الوطن والديار ولكن لهذا الحب حدوداً يجب أن لايتجاوزها لان فوق هذا الحب حب الحق والعدل والدين والعقيدة، وقد هاجر العربي أرضه إيثاراً للكرامة والعز وهاجر المسلم منها فراراً بدينه وفراراً من الظلم حين لايستطيع الحفاظ على دينه ودفع الظلم عن نفسه .

٢ – الجنس والاصل :

إن الجماعات البشرية من شعوب وأمم ترجع في تاريخ تكونها إلى استقرار عشيرة أو قبيلة في أرض معينة ثم امتزاج عدد من القبائل المتقاربة التي ترجع إلى أصل واحد وأرومة واحدة في شعب واحد ، وقد كان ذلك دوماً نقطة الانطلاق إلى تكون القوميات والامم ولهذا كان في كل شعب أو أمة عرق غالب وقد يكون هذا العرق مزيجاً من أعراق متعددة تلاقت وامتزجت وكونت عرقاً واحداً .

ووحدة الحياة فوق أرض واحدة والاشتراك في الاقليم والمناخ

وفي طريقة التفاعل مع البيئة الطبيعية وفي طريقة المعيشة فيها والتصرف في آفاقها وبذل ضروب معينة من النشاط وسلوك طرق للحياة والارتزاق والعمل والكسب والتغذي والتنقل تكون في كل جنس من البشر صفات جسمية في لون البشرة وتقاطيع الوجه وشكل الرأس وغير ذلك من الصفات الظاهرة والخفية كما تكون صفات معنوية مشتركة أو طبائع وأمزجة ، فقد عرف العربي بالذكاء والفراسة والانكليزي بالثبات والهدوء والفرنسي بالحماسة والانفعال والالماني بالنظام والهندي بالخيال والزهد . ولكن اختلاط الشعوب واتصال الأمم بالهجرات الكثيرة الفردية والجماعية وتمازجها بسبب الاشتراك في حضارة واحدة أو دين واحد جعل صفاء الجنس ونقاوة الأصل أمراً مشكوكاً فيه ، ولاسيما أن التطور الحضاري في العادات وفي الصناعة واختلاط الشعوب بعضها ببعض غير الكثير من الصفات الجسمية والخلقية الخاصة بكل شعب من الشعوب .

قد تكون رابطة الجنس أي الاشتراك في الأصل والدم هي الرابطة القوية في المراحل الأولى من تكون الشعوب والأقوام حين كان الاعتقاد بوحدة الأصل الدافع الاقوى إلى التقارب والتضامن والتعاون والمحبة بل العصبية ، والاعتقاد باختلافه باعثاً على النفرة والجفوة ،

ولكن المشاهد في الواقع أن الامم والشعوب لا تمكث طويلاً في هذه المرحلة بل تمر بها وتجتازها إلى غيرها ، فليست الرابطة في هذا العصر بين أبناء انكلترا أو المانيا أو أمريكا أو روسيا مثلاً هي كونهم ينتمون إلى أصل واحد وجنس واحد ، وإنما هي انتماؤهم إلى ثقافة واحدة ولغة واحدة وتاريخ واحد ، وليست وحدة الجنس إلا عاملاً من جملة هذه العوامل يقويها ويعضدها .

إن الاعتماد على وحدة الجنس واعتباره الأساس الاول لقيام الامة الواحدة لم تأخذ به إلا بعض الشعوب في فترات خاصة من تاريخها وقد ولد شعوراً بالاستعلاء واقترن بحب التغلب والسيطرة على الشعوب الاخرى وبروح الاعتداء والحروب وإثارة روح الحقد والبغضاء وأوجد بين الشعوب جواً من الكره والجفاء فكان بذلك منافياً للروح الانسانية ومعوقاً عن التقاء الشعوب على صعيد إنساني مشترك .

إن التطور الداخلي في كل أمة كان يتجه دوماً نحو إحلال الرابطة المعنوية الروحية المستندة إلى الثقافة والمدنية محل الرابطة الدموية فالثقافة السكسونية والحضارة الانكليزية بعاداتها وتقاليدها وثقافتها ومذهبها البروتستنتي هي التي تؤلف الرابطة بين أبناء انكلترا . وكذلك العربي فقد كان انتماؤه إلى النسب العربي هو الذي يربطه بأبناء العربية

وكلما كان النسب أقرب كانت الرابطة أقوى وأشد ، ولكنه أصبح بعد الاسلام يرتبط بأبناء جلدته برابطة الإيمان برسالة الاسلام وبالثقافة التي نشأت بعد الاسلام وخاصة من مصادره وينابيعه وتاريخه وماتضمنه من عقائد ومبادىء خلقية ونظم تشريعية وما تولد عن الاسلام من بطولات وفتوحات وصلات وعادات . وكلما كان القرب من هذه المبادىء وتلك الحضارة أشد والإيمان بها أقوى والحب لها أعمق والاستمساك بها أوثق كانت تلك الرابطة أقوى .

والخلاصة ان العرق أو الجنس إذا كان ذا تأثير في تكوين الشعوب في مرحلة قديمة من مراحل التاريخ وإذا كان رابطة بين أبناء الشعب الواحد والقومية الواحدة في طور من أطوار التاريخ حين كانت ضرورة حيوية للتماسك والتضامن والتعاون في مضمار الحياة فليس الأمر كذلك حين تتجاوز هذه الشعوب تلك المرحلة الأولى من تاريخها وتتعدى طوراً معيناً من أدوار الحضارة ، وإن كان هذا لا يعني أن ينعدم تأثير العرق ولا أن ينعدم الشعور بالقربى لأنه أشبه بشعور الانتماء إلى أسرة واحدة الذي هو شعور فطري طبيعي ولكنه كشعور القرابة في الاسرة انتقل إلى الدرجة الثانية أو دون ذلك لأن شعوراً آخر تقدمه ورابطة أخرى استعلت ، تلك هي رابطة الانتماء إلى ثقافة

تلك الأمة وحضارتها وعاداتها وقيمها ومفاهيمها .

ولو نظرنا إلى العرب في الحاضر لوجدنا أن هـذه الجماعة البشرية التي تسكن الوطن العربي من العراق إلى أقصى المغرب ومن بلاد الشام إلى اليمن وتتكلم لغة واحدة يرجع أكثرها إلى أصول عربية تتفاوت في القـدم وبعضها الآخر قد اندمج مع العرب بالاختلاط والتزاوج وباللغة والثقافة والدين حتى غدوا جميعاً يشعرون أنهم عرب ويصفون أنفسهم بالعربية .

٣ — اللغة :

يلاحظ أن انقسام البشرية إلى شعوب يقـابله انقسامها إلى لغـات وان الغالب ان لكل شعب لغة مشتركة تميزه من غيره من الشعوب. فالعرب والانكليز والفرنسيون والألمان والاسبان والأتراك والفرس وغيرهم من الشعوب كذلك لكل منهم لغته الخاصة التي تجمع بين أبنائه . ولهذه القاعدة شذوذ في أمثلة محدودة كاشتراك شعبين مختلفين في لغة واحدة كالانكليز والاميركان ، وكالاسبان وبعض دول اميركا الجنوبية، وكاختلاف اللغة في شعب واحد كسويسرا والهند والصين.

إن المشاهد في الحاضر والماضي أن الاشتراك في اللغة — ونعني باللغة اللغة الطبيعية لغة الأب والأم التي ينشأ الانسان عليها ويتحدث

بها – إن هـذا الاشتراك يولد في المتحـدثين بها شعوراً قوياً بالقربى والارتباط بالجماعة .

إن اللغة هي المدرسة التي يتربى فيها أبناء الشعب الواحـد فيتلقون عن طريقها أفكارهم فتطبعهم بطابعها سواء في ذلك المثقفون بما يقرأون من آدابها في شعرها ونثرهـا أو عامة الناس بما يسمعون من عباراتها وقصصها وأناشيدهـا . فالعربي ينطبع في عقله وتفكيره ومشاعره مايسمعه منذ طفولته من آيات القرآن وبليغ كلام العرب من شعر البحتري والمتنبي وشوقي وحافظ ومن آثار الأدباء من القدماء والمحدثين وما يقرأ من كتب وصحف ومجلات ومايسمع من محاضرات وإذاعات وما يصل إلى مسامعه في المجالس والندوات .

إن اللغـة هي التي تكون الأفكار المشتركة والمشاعر المتشابهة فتوجد في الأمة عقلية واحـدة أو متشابهة وتميزهـا عن غيرها من الأمم .

وإنك لتكاد تجد في كل لغة في جرس حروفها ونغمات كلامها وفي أسلوب نظمهـا للكلام وتركيبها للجمل صورة من صفات أصحابهـا وخصائصهم . وإنك لتجد في مفردات اللغة نظرة أصحابها إلى الوجود وطريقتهم في تصنيفهـا وتقسيمها وتـكاد تتبين من خلالهـا ملامح

شخصيتهم ومعالم تفكيرهم وعقليتهم وبعض طبائعهم وعاداتهم . وتحكي كذلك تعابير اللغة ومجازاتها واستعاراتها بعض تلك الصفات والملامح.

ولهذا كان اعتياد التحدث بلغة من اللغات طريقاً للتأثر بطباع أهل تلك اللغة وعاداتهم وأخلاقهم وتفكيرهم واتخاذ الانسان لتلك اللغة لغة له هو انغماس وانصهار في حياة أهلها وتجنس بجنسيتهم وارتباط بحضارتهم . والى هذا المعني اشار ابن تيمية في قوله :

(اعلم ان اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد في العقل والدين والخلق. وأيضاً فان نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية)[1] .

والى هذا المعنى نفسه أشار رسول الله ﷺ ، فقد جاء قيس بن مطاطة إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ، فقال هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء؟ فقام معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بما قاله فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد ثم نودي إلى

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٧

الصلاة جامعة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس إن الرب رب واحد والأب أب واحد والدين دين واحد وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم إنما هي لسان فمن تكلم العربية فهو عربي » .

قال ابن تيمية بعد أن أورد الحديث : هـذا الحديث ضعيف لكن معناه ليس ببعيـد[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعـاً : (من تكلم بالعربية فهو عربي ومن أدرك له أبوان في الاسلام فهو عربي).

ولهذا السبب نفسه تعني الأمم في نهضاتها بلغتها فتحييها وتهذبهـا وتحررها من الدخيل وتعتز بها وتعتبر الحفاظ عليها كالحفاظ على أرضها وكيانها وتراثها، وامتداد نفوذ الامم والشعوب يقترن كذلك بانتشار لغتها وثقافتها .

نقد وتحليل : اللغة الفاظ ام افكار

إن هذه الحجج التي قدمناهـا صحيحة مقبولة ، ولكننا لو تعمقنا في نظرتنا إلى اللغة وما تحـدثه من تلك الآثار لوجـدنا أنها إنما تؤدي تلك الوظيفة لما تحمل من ثقافة وأفكار ومفاهيم ومبادىء ومعتقدات

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٩

وعواطف لا لمجرد كونها أصواتاً مجموعة أو حروفاً مكتوبة . فليست اللغة إلا أداة لحمل الافكار وقالباً لها ووسيلة لنقلها، فيكون الاثر الحقيقي إنما هو لمضمون اللغة. والحقيقة أن الذي يجمع أفراد الامة حين تجمعهم اللغة وتوحد بينهم هو ماتحتويه تلك اللغة في آثارها الفكرية والادبية والفنية من أفكار ونظرات ومفاهيم ومبادىء وما يتسرب من ذلك إلى الناس في أحاديثهم في مجالسهم وندواتهم . والدليل على ذلك أن بعض الناس قد ينسون لغتهم الاصلية في أحوال خاصة كحالة بعض الجزائريين في عهد الاستعمار الفرنسي وهم مع ذلك لم ينسلخوا عن أمتهم بسبب احتفاظهم بعقائدها ومشاعرها التي قد تكون انتقلت اليهم عن طريق اللغة الفرنسية من أبناء أمتهم من أهل الجزائر العرب المسلمين . ومن الادلة على ذلك أيضاً أن بعض الاقليات القومية التي تعيش في أمة تختلف عنها عقيدة وثقافة لا تجعلها معرفتها بلغة تلك الامة وإجادتها لها جزأ من تلك الامة كاليونانيين الذين نشأوا في مصر والأرمن الذين تربوا في سورية ولو نسوا لغتهم الأصلية وسرعان ما يندمج في أمة من الأمم من يشترك معها في مبادئها وعقائدها ومثلها ولو كان جاهلاً للغتها في بادىء الأمر كالعرب الحضارمة الذين هاجروا إلى الملايو واندونوسيا، وكالهنود والتركستانيين

والاندونوسيين الذين استوطنوا الحجاز وكالاعاجم المسلمين الذين استوطنوا البلاد العربية .

إن وحدة اللغة متحقق في البلاد العربية ذلك أن خلود القرآن وبقاءه محفوظاً وإقبال العرب عليه وحرصهم على تعلمه جعل اللغة العربية الفصحى هي الأصل الذي يرجعون اليه ولولا ذلك لنشأت لغات عديدة بسبب تعدد اللهجات في الاقطار العربية. ولو ان تلك اللهجات ثبتت وتطورت لانتهت إلى لغات متباعدة كما حصل للغة اللاتينية في إيطاليا وفرانسا وإسبانيا. ولكن العرب كانوا يرجعون دوماً إلى اللغة الفصحى التي ثبتها القرآن الكريم ، ويعتبرون الانحراف عنها الى اللهجات الاقليمية او العامية انحرافاً في العقيدة والدين وابتعاداً عن القرآن . وأعان على ذلك ما في اللغة العربية من مرونة وقدرة على الوفاء بحاجات الحياة المختلفة من علمية وعملية ، وذلك ماجعل العرب يرتبطون فيما بينهم عن طريق اللغة العربية بما حملته هذه اللغة من ثقافة خلال قرون طويلة .

ولهذا السبب نفسه كانت محاولات الاستعمار والشعوبية كليهما متجهة نحو إضعاف اللغة العربية وإحلال اللهجات العامية محلها ، وقد صرفوا جهداً كبيراً في دراسة اللهجات العامية الاقليمية . وكذلك

عمل الذين اتخذوا الاقليمية من أصحاب النزعة الفرعونية والقومية السورية وباؤا في مسعاهم هذا الذي أرادوا به محاربة العربية والاسلام معاً بالخيبة والخذلان .

٤ — الثقافة :

يراد بالثقافة ذلك الجو الفكري والعاطفي الذي يعيش فيه أبناء الثقافة الواحدة والذي ينشأ من المعلومات النظرية التي يتلقاها المواطنون من دراستهم المدرسية وغير المدرسية والعملية التي يتلقونها من الحياة ، وما يتولد عن ذلك من عادات وتقاليد .

إن قوام الثقافة ليس في العلوم المحضة كالرياضيات والفيزياء لان هذه العلوم لاتختلف من أمة إلى أمة فهي مشاعة بين الناس ، ولا تختلف معادلات الكيمياء ولا نظريات الهندسة من شعب إلى آخر إلا من ناحية اتساع العلم والبحث العلمي وارتفاع المستوى العلمي . ولكن الجانب الذي يختلف من أمة إلى أمة وله في كل منها خصائص ومميزات وألوان واتجاهات هو الجانب المعنوي من الثقافة والذي يظهر في الادب والفلسفة والدين والتاريخ والفن إن هذا الجانب من الثقافة هو الذي يكوّن في كل أمة اتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها

ومثلها العليا ومبادئها وقيمها ومقاييس الخير والشر عندها ومشاعرها وعواطفها ونفسيتها . وهو الذي يجعل منها أمة إنسانية مسالمة أو أنانية معتدية وعملية إيجابية نشيطة أو خيالية راكدة أو سلبية . وهو الذي يجعلها تتجه في الحياة اتجاهاً يغلب فيه جانب العمل والانتاج والكسب أو جانب الفن والخيال أو جانب الاخلاق والدين والخدمة الاجتماعية أو تتوازن فيه الجوانب كلها أو بعضها .

فالثقافة الفرنسية مثلاً بمصادرها اليونانية والمسيحية وما أضيف اليها منذ عهد النهضة حتى العصر الحاضر من مذاهب فلسفية وآثار أدبية وثورات سياسية وفكرية وصفحات تاريخية هي التي تكوّن عقلية الفرنسي ونفسيته وأفكاره وعواطفه . وهي تختلف عن الثقافة الالمانية والانكليزية وإن كانت تتفق معها في بعض الجوانب. فلكل من هذه الثقافات طابعها الخاص في الفكر والفلسفة والأدب والفن وحوادث التاريخ ومقاييسه وبالتالي تختلف في بعض المبادىء والمفاهيم والمثل والاتجاهات والعواطف. ولو نظرنا إلى الثقافة العربية لوجدناها تختلف عن هذه الثقافات الثلاث اختلافاً كبيراً لما بينها وبينها من خلاف في أسس الثقافة ومذاهب الفكر وفلسفة الحياة ومبادىء الأخلاق وصفحات التاريخ ومعالم الحضارة .

وإن تقارب الثقافات واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة يقترن دوماً بتقارب القوميات والأمم واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة في الحياة ويسهل تعاونها في ميدان أو أكثر من ميادين الحياة .

إن البلاد الشيوعية على اختلاف قومياتها تشترك حالياً في ثقافتها الأساسية ومن السهل أن تتعاون بسبب ذلك . ومثلها الشعوب الاسلامية إذ كانت ثقافتها واحدة أو متشابهة فانها يمكن ان تتعاون أوثق التعاون ولا سيما في المجال الشعبي والاجتماعي .

إن المهم في الثقافة التي تكون أبناء الأمة الواحدة وتوحدهم وتصل ما بينهم بصلة قوية عميقة هو نوعية الثقافة والعناصر التي تتألف منها لا المستوى الثقافي . فليس الناس سواء في درجة ثقافتهم وفي مستوى هذه الثقافة وذلك في أي أمة أو شعب وليس ذلك بضائر وحدتهم ولا منتقص تماسكهم الداخلي بشيء . أما اختلاف نوعية الثقافة فانه إذا قوي واشتد وكان عاماً في طبقة كبيرة من الناس يحدث خللاً ويؤدي إلى شيء من التفكك ويسبب على كل حال أزمة اجتماعية .

إن للعرب في شتى أقطارهم ثقافة مشتركة تتألف عناصرها الأساسية من الأدب العربي في الجاهلية والاسلام ومن التراث الاسلامي من القرآن الكريم والحديث الشريف وما نشأ عنهما من مفاهيم عقائدية

ونظرات ومبادىء خلقية سواء تجلى ذلك في ثقـافة للخواص في علم الكلام والتصوف والفقه والفلسفة أو في ثقـافة شعبية شائعة عامة .

وتتألف كذلك من التاريخ ولا سيما تاريخ الاسلام الذي يؤلف أضخم ما في التاريخ العربي وأوسع مافيه من آفاق والذي هو الاطار الزماني والمكاني للحضارة الاسلامية التي أنشأها العرب متعاونين مع الشعوب التي استجابت لدعوتهم الاسلامية . وهذا التاريخ يتألف من حوادث وبطولات وفتوحات ومعالم حضارة ورجال أعلام في كل ميدان من ميادين الحياة . ويضاف أخيراً إلى هذه العناصر كلها عنصر جديد هو ما دخل الثقافة العربية في العصر الحاضر من ثقافة مستقاة من الأمم الغربية المعاصرة وحضارتها . إن الثقافة العربية في العصر الحاضر تتألف من مجموع هذه العناصر وهي بالجملة مشتركة بين مختلف الأقطار العربية على نسب متفاوتة.وهذا التفاوت يختلف باختلاف البيئات في كل بلد عربي أكثر من أن يختلف بحسب البلدان والأقطار .

وإن مما لاشك فيه أن عنصر الثقافة الأجنبية الذي دخل في الثقافة العربية إذا قوي تياره واتسع نطاقه وأخـذ كما هو من غير مقياس ولا ضابط ولم يتمثل تمثلاً بمقياس الثقافة العربيـة يسبب خطراً على كيان الأمة العربيـة ويمهد السبيل لإذابتها في غيرهـا . ولست أعني هنـا

بالثقافة الأجنبية العلوم المادية والعملية فانها كما قلنا سابقاً لاتختلف من أمة إلى أخرى ، ولكني أعني المذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية والأدبية الفنية وسائر العناصر الحضارية التوجيهية في الثقافة. ولاشك كذلك أن الاطلاع على هذه الثقافة مفيد ونافع إذا قام به نفر من الخاصة الذين لهم من قوة ثقافتهم العربية الأصيلة وقوة شخصيتهم ما يحول بينهم وبين الذوبان في تلك الثقافات الأجنبية .

ولو انتشر تيار الثقافات الشيوعية والوجودية وغيرها وطما سيله وطغى على ثقافتنا العربية وتراثنا الاسلامي وحملته الينا روافد من مختلف البلدان الأوربية والاميركية لنشأ جيل عربي الوجه واللسان ، ولكنه أعجمي الفكر والنفس يشعر بالتبعية لغيره وباحتقار الذات .

إن الثقافة في كل أمة تتجدد وتنمو على الدوام فتضيف طريفها إلى تليدها ومبتدعاتها إلى تقاليدها ولكنها تسير في ذلك على طريقتها وأسلوبها . وإذا كان الجديد مقتبساً تمثلته تمثلاً تاماً حتى يصبح قطعة مجانسة لثقافتها حتى لايكون في حياتها انقطاع ولا فجوات .

نظرة تحليلية :

ونعود بعد ماقدمنا من بيان أثر الثقافة في تكوين الأمم والربط بين أفرادها وتوحيد عقليتها إلى القاء نظرة فاحصة على طبيعة الثقافة نفسها لمعرفة جوهرها والتفتيش عن سبب إحداثها مثل هذه الآثار التي تحدثنا عنها .

لقد قلنا في بدء كلامنا أن الجانب الذي تتميز به الامم من الثقافة والذي يكوّن عقلية الامة ويوحدها ويربط بذلك بين أبنائها ويوجد بينهم شعوراً بالانتماء إلى حضارة واحدة وروح واحدة هو ذلك الجانب المعنوي من الثقافة الذي يتجلى في تاريخها وأدبها ودينها وتقاليدها الفكرية والعملية ولو نظرنا في هذا الجانب من الثقافة لوجدنا أن العنصر الاساسي فيه والمشترك بين أجزائه ومجالاته المختلفة هو ما تتضمنه الثقافة من فلسفة في الحياة ومن نظرات الى الوجود ومن مفاهيم واتجاهات ومن مبادىء وقيم . فالثقافة الفرنسية مثلاً مزيج معين من المذاهب الفكرية والدينية ومن القيم التي تقاس بها الحياة الماضية والحاضرة ومن المبادىء والمفاهيم الاخلاقية في الحياة . والثقافة الالمانية هي مزيج من نوع آخر لمذاهب فكرية ودينية واتجاهات

اجتماعية ومبادىء وقيم أخلاقية .وهكذا الثقافة الروسية والاميركية.
وعلى هـذا فالعنصر الاساسي في الثقافة هو فلسفتها ومفاهيمها
ومعتقداتها وافكارها .

٥ — التاريخ :

إن وحدة التاريخ وحدة في (الزمان) كما أن وحدة الارض
وحدة في (المكان)فالتاريخ بحوادثه خلال العصور ولا سيما الكبيرة
ذات الأثر وعهوده المختلفة ومعاركه الحربية سواء أكانت نصراً أم
هزيمة ، بأفراحه وأتراحه ، بآماله وآلامه ، بحقائقه وأساطيره يكوّن
في كل شعب جزءاً كبيراً من تفكيره وشعوره بما يحدثه في النفوس
من آثار وفي العقول من تفكير وفي الحياة من اتجاهات.وهو مجموعة
من التجارب التي عركت الشعب وتفاعل معها فوحدته وجعلت له
في الحياة موقفاً واحداً .

إن حوادث التاريخ وتجاربه وأيامه تختلف من شعب إلى شعب
ولذلك تختلف الامم في تكوينها النفسي الناشىء عن التاريخ .
والتاريخ بالنسبة لكل أمة مجموعة ذكرياتها الحلوة والمرة وصفحاتها
الجميلة والقبيحة ، وهو كذلك ذاكرتها . ويتصل التاريخ الماضي

بالحاضر ثم ينقلب الحاضر ماضياً بل ان الحاضر هو الجزء الاخير من هذا الماضي وهو متأثر كل التأثر بالماضي .

ولما كان تاريخ الامة هو حياتها الماضية وتجاربها الخاصة فان الامم في نهضاتها تهتم بدراسة تاريخها لتتعرف إلى نفسها وتنغمس في تاريخها لتحقق ذاتيتها ، ومن هنا كان الاعتزاز بالتاريخ اعتزازاً بالذات بالنسبة إلى الامم ، وكانت الدول المستعمِرة تحاول أن تنسي البلاد المستعمَرة تاريخها لتنسيها نفسها ولتنسلخ من ذاتها وتسهل تبعيتها لها . وحين تتحرر الشعوب من الاستعمار تقبل على تاريخها فتدرسه لتستوحي من تجاربه وتعتز بأمجاده وتتجنب أخطاءه ولتوقظ في نفوس أبنائها الشعور العميق بذاتيتها . وقد تصاب الأمم في إبان نهضتها القومية بالمغالاة في الاعتزاز بالتاريخ وتقديسه الى حد العصبية حتى تقلب أخطاءه أمجاداً وسيئاته حسنات فتغلبها العصبية على الحق والهوى على المنطق فلكل أمة جاهليتها ولكل شعب عهود ضلال وفساد .

وتعصب الامم لجاهليتها وعهود ضلالها وأخطاء تاريخها ولرجالها الذين طغوا وظلموا وأفسدوا لمجرد أن ذلك جزء من تاريخها تعصب غير محمود وانانية ممقوتة يشبه افتخار بعض الناس بماضيهم السيء في

القتل والنهب والفجور . وإنما يؤخذ من التاريخ محاسنه ومفاخره وصفحاته البيض ، وأما أخطاؤه فتترك وضلاله فيصحح ويستفاد من تجاربه السيئة ، فلا يعتز باتراث لأنه تراث قومي بل لما فيه من خير ومنفعة وانسانية وقيم خلقية ومثل عليا .

لقد كان في تاريخ العرب الذي سبق الاسلام حسنات وسيئات فكان فيه من مكارم الأخلاق ما أبقاه الاسلام وأكد بقاءه ، وكان فيه من السيئات ماحاربه الاسلام وسعى إلى إزالته كالعصبية للقبيلة والثأر والوأد في بعض القبائل فرسم بذلك للعرب ولغيرهم من الأمم اتجاهات أخلاقية وإنسانية .

إن التاريخ المؤثر في حياة الأمم ليس هو التاريخ كله على الاطلاق ولكنه الجزء الحي في النفوس من ذلك التاريخ لا الجزء الذي أصبح نسياً منسياً ، فتاريخ العرب القديم الموغل في القدم ليس حياً في نفوس جمهور العرب ولا يكادون يعرفون عنه شيئاً ولا يذكرون أبطاله ، وإنما يبدأ التاريخ العربي الحي من عهد الجاهلية التي سبقت الاسلام وكان الاسلام سبباً لمعرفتها لأنه جاء للثورة عليها وتغيير أكثر مافيها والإبقاء على ما كان فيها من الفضائل والمكارم . يعرف جمهور الشعب العربي شيئاً قليلاً عن العصر الجاهلي ويسمع بكرم حاتم

وشجاعة عنترة، ولكن أهم أجزاء التاريخ الحي في نفوس جماهير العرب وأقواها تأثيراً وأوضحها صورة في الأذهان هو الجزء الإسلامي من تاريخه. فليس من العرب أحد لا يضع في القمة العليا من هذا التاريخ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس منهم من لا يرى في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وخالد وأمثالهم نماذج إنسانية عليا، كما يذكرون دهاء معاوية وعمرو وحزم زياد وظلم الحجاج وبطشه وعدل عمر بن العزيز وزهده وترف العباسيين وعلم الشافعي ومالك وبطولة صلاح الدين وإخلاص نور الدين، وتلمع في مخيلتهم وأذهانهم صور المعارك الكبرى من بدر إلى اليرموك والقادسية إلى الحروب الصليبية إلى بلاط الشهداء في الأندلس، وتتم في هذه المعارك الأخيرة وأبطالها من حرب الامير عبد القادر إلى ثورة الاستقلال في الجزائر، ومن معارك عمر المختار إلى الامير عبد الكريم الخطابي. إن العرب يشعرون أن في هذا التاريخ جزءاً من وجودهم وأن انتصاراته انتصار للحق على الباطل سواء أكانت في داخل البلاد العربية وبين العرب أنفسهم كبدر حيث انتصرت دعوة التوحيد والحق، أو بينهم وبين أعدائهم كالحروب الصليبية، أو كانت في الخارج كالقادسية وغيرها من معارك الفتوح. وقد امتزج تاريخ العرب

السياسي والحضاري في أبرز أقسامه وألمع صفحاته بالاسلام حتى غدا في شعور الجماهير شيئاً واحداً .

وعلى هذا الأساس الديني في تاريخ العرب تعاون العرب مع شعوب عديدة دخلت في الاسلام والتقت معها في حضارة واحدة وارتبطت معها بذكريات تاريخية عزيزة مقدسة وحاربت معها عدواً واحداً وكونت معها كتلة سياسية كالدولة العثمانية التي اجتمعت فيها شعوب عديدة واجهت مجتمعة الدول الاوربية التي بدأت زحفها وهجومها منذ عهد الحروب الصليبية وكانت هذه الدولة مبنية على مفهوم خاص هو اجتماع شعوب متعددة تحت راية الاسلام تربطها الرابطة الدينية ، وكان الحكم ينتقل من خلال التاريخ من شعب إلى آخر ومن أسرة إلى أخرى ولكنه حكم كانت تشترك فيه الشعوب والقوميات المختلفة في مختلف وظائف الحكم والادارة . ومن الخطأ الفادح تسمية هذا العهد عهد استعمار لانه عهد له مفهومه الخاص ، ولم يكن استعمار شعب تركي لشعب عربي اللهم إلا في الفترة الأخيرة التي حكم فيها حزب الاتحاد والترقي بدافع من القومية التركية بعد سقوط الخلافة ، فقد كان يشترك الاتراك والعرب والاكراد والجركس والالبان في وظائف الدولة من رئاسة الوزارة حتى الوظائف الادارية الصغيرة ،

وما كان يكتب في السجلات المدنية وتذاكر النفوس إلا الدين . وأما ما كان في ذلك العهد من ظلم أو فسادفذلك أمر لا علاقة له بهذا الموضوع وظاهرة عامة لا تخص شعباً دون شعب . وكانت اللغة التركية لغة الدولة لان الرئاسة كانت فيهم وكانوا هم المتغلبين على الحكم أكثر من غيرهم ، ولكن لم تكن نظرة تلك الدولة نظرة شعب حاكم لشعب محكوم ، وإنما كانت النظرة : شعوب إسلامية متعددة يحكمها خليفة تركي ، وهي متساوية في الحقوق والواجبات . إن هذه الحال على ما كانت عليه من خير وشر تختلف اختلافاً كبيراً عن حالة العرب تحت حكم الفرنسيين أو الانكليز في عهد الاستعمار الأخير .

إن مرحلة الاستعمار الأخيرة التي اقترنت بثورات التحرر من الاستعمار وحّدت كذلك بين البلاد العربية فولدت شعوراً مشتركاً يتمم ويكمل ذلك الشعور العميق المشترك الذي ولده فيها ذلك التاريخ السابق وعهود الاسلام وحضارته وفتوحاته السامية والحربية .

ملاحظات هامة تتعلق بعنصر التاريخ :

١ — وحدة التاريخ ليست مطلقة عامة فقد تمر بعض الحوادث

الجسام على بعض أجزاء الأمة الواحدة ، وقد تنقسم الأمة الواحدة في بعض عهود التاريخ إلى أقسام لـكل منها تاريخه الخاص من الوجهة السياسية أو نظام الحكم أو العلاقات الخارجية أو الحروب أو الصلات الثقافية أو غير ذلك فليس تاريخ الحجـاز والعراق والشام ومصر واحداً في تفاصيله في قيام نظام واحد للحكم وفي الانضمام للدولة العثمانية وفي الوقوع تحت الاستعمار وفي التحرر والاستقلال وفي غير ذلك من حوادث التاريخ ولـكنها مشتركة في أهم صفحـات تاريخها وفي خطوطه الكبرى ولذلك نجد إلى جانب التواريخ الكبرى الجامعة لتاريخ الاسلام وشعوبه ولتاريخ العرب تواريخ خاصة باقليم واحـد وقطر واحد .

٢ — يقع في تاريخ الامم وتاريخ الامة الواحدة انفصال واتصال فقد ينفصل جزء من شعب وينسلخ من تاريخ ويتصل بتاريخ آخر . فلو بقيت الاندلس ضمن حدود العروبة والاسلام لكانت متصلة بتاريخ المغرب لا بتاريخ اسبانيا ولـكنها انفصلت عن هذا التاريخ الذي بقيت متصلة به مئات السنين وغدا تاريخها هو تاريخ اسبانيا .

إن الامم التي تتقارب في تواريخهـا أو تشترك في بعض عهود التاريخ في اتجاه واحد تتقارب في حياتها وفي حضارتها ، وكلمـا كان

ذلك الاشتراك أطول زمناً وأغنى بالحوادث وأكثر تداخلاً وأجمع في وجهة النظر وفي الاتجاه الحضاري كان التعاون والتقارب والتآلف أشد ، ولا سيما إذا شملت هذه الامم والشعوب وحدة ثقافية أو حضارية واحدة أو اطار حضاري واحد كالحضارة الاسلامية بالنسبة إلى الشعوب الاسلامية والثقافة الشيوعية بالنسبة إلى الشعوب الشيوعية مع الفوارق الكبيرة بين النوعين .

مناقشة وتحليل :

إذا وجدنا أن تاريخ الامة الواحدة يوحد أبناءها ، وتاريخ الشعب الواحد يوحد ذلك الشعب فانه يجدر بنا أن نبحث عن السبب في ذلك وعن نوع الارتباط بين التاريخ والمجتمع .

إذا كان التاريخ مجموعة حوادث كبيرة وصغيرة تحدث وتتابع على مشهد من جماعة بشرية معينة فهل الموحد لهم هو مرور الحوادث نفسها عليهم أم هو في الحقيقة تفاعلهم مع هذه الحوادث والأثر الذي تتركه في عقولهم وفي نفوسهم ؟ وهل تترك الحوادث آثاراً متشابهة في الجماعة ومتى يكون ذلك ؟ ألا يختلف البشر في نظرتهم إلى الحوادث التاريخية وتختلف مشاعرهم نحوها فرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً وفي تقويمهم لها واعتبارها خيراً لهم أو شراً عليهم ، ومتى

وكيف يتفقون في هذه النظرة وتقويمهم لها وتأثرهم بها ؟ هل ينظر الهنود — المسلمون منهم والهنادك — إلى الفتح العربي الاسلامي للهند نظرة واحدة ويقيسونه بمقياس واحد ؟ ألا يرى المسلمون فيه تحريراً لهم من الخرافة والوثنية وهداية لعقولهم وتوجيهاً لهم نحو الخير والرقي، ويرى فيه الهنادك تحطيماً لدياناتهم القومية وحضارتهم الخاصة ؟ ألا يرى المسلمون في محمد صلوات الله عليه الهادي والمحرر الاعظم للانسانية، وفي أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة وخالد أبطالاً عظاماً وهداة للبشرية ومحررين لها من الظلم والعبودية والخرافة ويتخذون من تاريخ الاسلام تاريخاً لهم ومن أبطاله نماذج إنسانية صالحة للاقتداء جديرة بالتعظيم .

ان المهم في موضوع التاريخ ليس هو حوادثه نفسها وإنما هو نظرة الناس إلى التاريخ والقيم التي بها يقومون رجاله وحوادثه . وهذه النظرة وتلك القيم هي التي تجعله موضوع اعتزاز ومحبة أو نقمة وكراهية ومحل فرح وغبطة أو حزن وألم. وان الموحد الحقيقي لابناء الامة أو المجتمع هو تلك المقاييس التي يقاس بها التاريخ وتلك النظرة التي ينظر بها اليه، لانها هي التي تولد فرحاً أو ألماً مشتركاً فتوحد المشاعر وهي التي تجعل رجاله وحوادثه محل تقدير وتعظيم واعتزاز أو

موضع تحقير وكراهية وبراءة . فالعنصر الحقيقي الذي يختفي وراء عنصر التاريخ هو نظرة ابناء الامة الى الحياة والقيم التي تؤمن بها والعقائد التي تميز الخير من الشر والفضيلة من الرذيلة والمبادىء التي تقيس بها الرجال والاعمال .

إن هذه القيم والمبادىء والنظرات والعقائد هي التي تسبب وحدة التفاعل مع حوادث التاريخ فتجعل منها حينئذ عنصراً موحداً لابناء الشعب .

إن العنصر الموحد بين أبناء المجتمع العربي هو اعتبارهم لمعركة بدر انتصاراً للحق على الباطل واعتبارهم فتوح الشام والعراق عملاً تمدينياً حضارياً محرراً من ظلم الرومان والفرس ونظرتهم إلى محمد بن عبد الله على أنه أعظم العظماء وان رسالته رسالة حق ونور وهداية ومدنية وإلى المدنية التي انتشرت بانتشارها والحضارة التي أُقيمت على مبادئها على أنها حضارة يعتزون بها وينتمون اليها ويقتبسون منها ويكملون عملها ويتابعون رسالتها .

٦ — الدين والمعتقدات والافكار :

لقد تبين لنا من مناقشة أثر اللغة والثقافة والتاريخ في تكوين

الأمم أن وراء هذه العناصر الثلاثة عاملاً أساسياً هاماً مشتركاً بينها وهو الذي يجعل اللغة والثقافة والتاريخ ذات تأثير في تكوين الأمم وعوامل مقربة وروابط جامعة لأبناء الأمة الواحدة ، وهذا العامل المشترك الشامل لهذه العناصر والداخل في مضمونها والمختفي وراءها هو المفاهيم الاساسية والمعتقدات والافكار العامة والاتجاهات الفكرية الكبرى ، أي نظرة تلك الامة العامة الى الحياة والعقائد المشتركة بين أبنائها أو أكثريتهم في كل عصر من عصورها أو طور من أطوارها سواء أكانت هذه المعتقدات والمفاهيم دينية أم غير دينية . والبحث في أثر الدين في تكوين الامم وفي علاقته بالقومية إنما يدخل في نطاق هذا البحث الذي هو أشمل وأعم ، والباحث في تطور المجتمعات ونشوء الامم في مختلف العصور لا بد له حين يستقرىء الحوادث وينظر إلى ماضي الامم وحاضرها من أن يطرح القضية على هذا الاساس الواسع . ذلك أن كل قومية من القوميات وكل أمة من الامم لا بد من أن يشترك أبناؤها في كل طور من أطوارها في مبادىء ومفاهيم ونظرات إلى الحياة ومعتقدات عامة مشتركة ولا بد أن يكون بينها حد ادنى على الاقل من المبادىء الاعتقادية المشتركة سواء أخذت هذه المعتقدات والمفاهيم المشتركة شكلاً دينياً واصطبغت

بصبغة الدين أم لم تكن كذلك . فاليونان القدماء كانت تجمع بينهم ديانة وثنية والعرب جمع بينهم الاسلام حين ظهر في معتقداته ونظراته إلى الحياة، والاتحاد السوفييتي في العصر الحاضر يجمع بين افراد كل قومية من قومياته وبين جميع قومياته عقيدة واحدة هي الشيوعية باعتبارها فلسفة وعقيدة . والاميريكيون تجمع بينهم مبادىء مشتركة تكون فلسفتهم ونظرتهم ، وهي مزيج من الافكار المسيحية البروتستانتية والمبادىء الديمقراطية .

والدين يدخل في نطاق العقائد التي يدين بها البشر بل هو من أقوى العقائد تأثيراً في النفوس لاتصاله بأعمق العواطف الانسانية ولما كان له في البشرية عامة ولدى مختلف الشعوب من أثر فكري وخلقي عميق وامتداد في جذور البشرية على اختلاف أجناسها وقومياتها .

ولا بد لنا لمعرفة أثر الاديان والمعتقدات عامة في تكوين الامم من القاء نظرة تاريخية على الموضوع لمعرفة مختلف الاحوال بحسب العصور وعند مختلف الشعوب والامم .

١ — كانت الظاهرة العامة في بداية نشأة الشعوب أن لكل شعب دينه الخاص به فكانت الاديان قومية خاصة وكان الدين يؤلف جزءاً

اساسياً من حياة كل شعب . وتختلف الشعوب باختلاف اديانها كما تختلف الاديان باختلاف الشعوب التي تدين بها حتى كأن كل دين رمز لقومية معينة فهما مقترنان متلازمان متداخلان . فالمزدكية دين الفرس واليهودية دين بني اسرائيل والبرهمية دين الهنود والكونفوشيوسية دين الصين حتى لكأن لكل قوم إلهاً يتصورون أنه خاص بهم وأنه ينصرهم دون غيرهم . وهكذا تبدو الصلة القديمة بين كل قومية ودينها القديم صلة وثيقة عميقة وبذلك كان للدين أثره القوي في تفكير الشعب الذي يدين به وفي مفاهيمه وتصوراته وفي سلوكه ومبادئه وأخلاقه . ولهذه الصلة العميقة القديمة يذهب غلاة القوميين في كل أمة في العصر الحديث الى بعث دياناتهم القديمة ووثنياتهم وجاهلياتهم وأساطيرهم ويعمدون الى إحيائها والإشادة بها وتجديد معالمها وتلقينها الى الاجيال الجديدة . ومما لاشك فيه أن في هذا الاتجاه ضرباً من العصبية والهوى ومجافاة للحق والتفكير السديد .

٢ — ثم أتى على البشرية حين من الدهر تواصلت فيه الشعوب وتأثر بعضها ببعض في الحضارة والثقافة والدين وانتقلت بعض الاديان من شعب إلى شعب كانتقال البوذية من حدود الهند الى الصين ثم الى المغول واليابان ، وانتشار النصرانية في شعوب عديدة، وظهور الاسلام وانتشاره في أمم كثيرة أيضاً .

إن هذه الاديان التي عمت أكثر من قومية وانتشرت في عدد من الشعوب أصبحت صعيداً مشتركاً بين تلك القوميات والشعوب تلتقي عليه في تفكيرها وفي مفاهيمها وفي سلوكها ومبادئها :

(أ) إن هذه الاديان العامة ظهرت في الاصل في شعب من الشعوب ثم انتقلت منه الى غيره ، ولهذا فان صلتها أوثق بالشعب الذي منه كانت البداية لأنه عاش في أجوائها قبل غيره من الشعوب وكان أطول ملازمة لها وأقدر على تفهمها وتمثلها . وهذه هي حال العرب مع الاسلام . ولكن هذه الحالة وإن كانت هي الاصل قد تشذ لأن بعض الديانات قد تنتقل الى شعوب أخرى وتستقر فيها وتتأصل في حين أنها قد تضعف في بلدها الاصلي ومنشئها الاول كما حدث للبوذية التي كانت في الهند وعاشت بعد ذلك في غيرها .

(ب) إن الدين الذي ينتشر في شعوب كثيرة تدين به يصبح بالنسبة الى كل قومية من قومياتها بعد طول الزمن وعلى مر الايام جزءاً اساسياً منها وعنصراً من عناصر تكوينها يؤثر في تفكيرها وفي عاداتها ويكون إحدى الروابط التي تربط بينها داخلياً .

فالاسلام بالنسبة الى الافغان او الاتراك مثلاً ، وهو الدين الذي عم في هاتين القوميتين حتى استغرق الشعب كله ، أصبح جزءاً من

كيانها وكون جزءاً من تاريخها وأثر في تفكيرها وفي حياتها ولو أنه ظهر في الاصل في شعب آخر ، وكذلك المسيحية الكاثوليكية بالنسبة الى فرانسا وإيطاليا وإسبانيا .

(ج) إن الدين الذي يعم قوميات عديدة يقيم فيما بينها رابطة روحية تتسع وتضيق وتقوى وتضعف بحسب سعة ذلك الدين واستيعابه لنواحي الحياة كلها او لاقتصاره على بعضها وبحسب حاله من القوة والضعف . إنه يوجد فيما بينها أسساً عقلية ومفاهيم فكرية مشتركة فيقرب بينها في التفكير وفي مذاهب الحياة ومواقفها وفي الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الناشئة عن أحكام ذلك الدين وتصوراته ومفاهيمه ويوجد بنتيجة ذلك أهدافاً مشتركة في الحياة وشعوراً بالتآلف والتقارب والمودة ، تتقارب مقاييس الخير والشر والحب والبغض تقارباً قد يصل الى التماثل والوحدة في الفكرة والشعور وقد يمكنها من التعاون في مجالات عديدة وضمن إطارات متنوعة .

(د) إن أخذ شعوب مختلفة في أصولها القومية بدين واحد ليس معناه زوال جنسيتها وأصولها القومية واندماجها اندماجاً كاملا في مجتمع واحد لا أثر فيه للغاتها المختلفة وعاداتها الاصلية وخصائصها، فان هذا أمر لم يحدث حتى الآن في التاريخ فان انتشار الاسلام بين

العرب والترك والافغان والايرانيين والهنود والملايون والاندونسيين ليس معناه زوال صفة التركية عن التركي والهندية عن الهندي مع أن بعض هذه الشعوب اشتركت واجتمعت في دولة واحدة وفي نظام سياسي واحد حقبة من التاريخ كالعرب والفرس والافغان وكالعرب والاتراك في فترة أخرى ، وإنما معناه تعاون هذه الشعوب على اختلاف خصائصها القومية من لغة وعادات وطبائع وصفات في أهداف الحياة وغاياتها في المجال السياسي أو العلمي أو الاقتصادي أو في ذلك كله أي في المجال الحضاري . إنها يمكن أن تكون وحدة حضارية سواء أكانت في ظل حكم سياسي واحد أو متعدد .

(ه) بل اننا نستطيع أن نقول إن الدين العالمي بل كل عقيدة عامة — مع وحدة العقائد والمبادىء الاساسية — يأخذ في كل شعب لوناً خاصاً ويتفاعل مع كل قومية تفاعلاً تظهر فيه خصائص تلك القومية وفعالياتها وطبائعها ، بل قد تظهر بعض نواحي عقليتها القديمة وعقائدها السالفة وعاداتها الماضية في الدين الجديد الذي تأخذ به . وقد يبلغ الامر أن تصبغ الدين الجديد بصبغتها الخاصة ، وتعكس عليه بعض ألوانها وصفاتها . فلا شك أن الاسلام واحد في عقائده وأحكامه ولكنه يأخذ عملياً ألواناً وأشكالاً مختلفة في اندونسيا والهند

والملايو وتركيا ، وهذه الاشكال لاتضر ولا تؤثر في جوهر الدين ووحدته إذا كانت تتعلق بالمظاهر والتفصيلات ، ولكنها تؤثر حين تمس المبادىء والاصول والاتجاهات الاساسية . وان نظرة فيما آل اليه الاسلام عند عوام الشعب في إيران والمقارنة بين أشكاله القريبة من الوثنية وعبادة البشر والقبور فيها وبين صفاء التوحيد الذي هو عليه في جزيرة العرب تكفي لبيان أثر خصائص الشعوب في الدين . وإن كثيراً من الانحرافات والتشويهات التي ظهرت في تاريخ الاسلام وما ظهر من فرق ابتعدت عن أصل الاسلام قليلا أو كثيراً إنما نشأت في الغالب مما حملته بعض الشعوب معها حين دخلت الاسلام من عاداتها وعقائدها القديمة أو ما كان من رد فعل لها حين واجهت الدعوة الاسلامية . وإنا لنجد في البروتستانية كثيراً من خصائص الشعب الالماني والشعوب الاوربية المجاورة له حتى أصبح هذا المذهب يتلاءم مع الشعوب الجرمنية والسكسونية .

٣ — إن بعض الامم ضعف فيها أثر الدين أو اقتصر على نواح محددة من حياتها ولكنها أحلت محله جزئياً أو كلياً عقائد أخرى فأصبحت هذه العقائد الجديدة هي العنصر الاساسي المشترك في تلك الامم . فالشعوب الاوربية كفرنسا وانكلترا والمانيا مثلا لم يبق فيها

الدين العامل الاساسي في تكوينها وترابطها الاجتماعي ، ولكنه لم يفقد أثره مطلقاً بل لايزال له أثر في الفكر والشعور ، ولكن تشاركه عقائد فكرية جديدة في هذا المجال . والشعوب التي اتخذت الشيوعية مذهباً استبدلت بالعقيدة الدينية عقيدة وضعية اجتماعية هي العقيدة الشيوعيه بمفاهيمها ونظراتها . وعلى هذا تكون العقيدة في كل الاحوال جامعا اساسيا ورابطا موحداً بين ابناء الامة الواحدة وإن كانت هذه العقيدة هي في روسيا مثلا المسيحية الارثوذكسية في طور من الاطوار والشيوعية في طور آخر . ولكننا نستطيع أن نؤكد أن أكثر الشعوب الاوربية والاميركية إن لم نقل كلها لاتزال المسيحية التي هي دين شعوبها تؤثر تأثيراً عميقاً في حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية.

٤ — ولكن العقائد والاديان ليست متساوية في تأثيرها في الشعوب وفي كونها عنصراً أساسياً في تكوينها وفي استمرار هذا التأثير وذلك بحسب كونها اولا عامة شاملة مستغرقة لجميع نواحي الحياة وفعالياتها أو مقتصرة على بعض نواحيها . فاذا كان الدين عاماً شاملا لنواحي الحياة كان أثره في تكوين الامة أقوى شأنه في ذلك شأن العقائد الشاملة من هذه الناحية . واما إذا كان مقصوراً على شعائر العبادة وبعض المعتقدات الخاصة فان أثره يكون محدوداً .

ويختلف كذلك أثر الدين بحسب قدرته على الاستمرار والخلود وصلاحيته للحياة وقدرته على تقديم الحلول لما يجد من الظروف وثبات أسسه الفكرية واتجاهاته الاجتماعية أمام تطور الفكر والمجتمع .

ويختلف أثره من جهة أخرى بحسب قوة صلته وعمق تأثيره في أمة من الامم وطول اقترانه بتاريخها سواء أكان ناشئاً في الاصل فيها أو في غيرها . ولذلك لا يمكن وضع قاعدة عامة في أثر الدين في تكوين القوميات والامم لأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال التي ذكرناها .

ويمكننا بعد أن استعرضنا عوامل اللغة والثقافة والتاريخ والمعتقدات أن نلاحظ أن هذه العوامل المعنوية كلها تؤدي الى نتيجة هامة جداً في تكوين الامة وهي إيجاد جو من الانسجام الفكري والعاطفي بين أفراد الامة أي من التشابه في التفكير والسلوك والاتجاه في الحياة وهذا الانسجام والتشابه المؤدي الى التآلف والتعاون هو الاساس في تكوين كل أمة من الامم وفي ارتباط المنتمين إليها بعضهم ببعض وكلما كان هذا الانسجام أكمل وأتم كانت الرابطة بين أبناء الامة أوثق وأقوى وثمة حد أدنى من الانسجام إذا فقد انحلت تلك الرابطة ولم تعد الامة أمة واحدة بل تغدو مجموع قبائل وعشائر تعيش بالتضامن

القبلي وبالتوازن بين القوى المتقابلة . إن هذا الحد الادنى من الانسجام لا يتحقق إلا إذا كان للأمة عقيدة أو فلسفة في الحياة مشتركة توحد أو تقارب بين نظرات أبنائها ومواقفهم في الحياة . إن اتفاق النظرة الى الحياة أو الاشتراك في المفاهيم والمعتقدات — مهما تكن تلك المعتقدات وبصرف النظر عن صحتها أو خطئها — هو العامل الاقوى والعنصر الاهم في تكوين الامم وهو الذي يجعل من الامة وحدة اجتماعية حية متآلفة لها كيانها وخصائصها . ولاشك أن الاشتراك في دين واحد عامل هام من عوامل هذا الانسجام ولا سيما إذا كان هذا الدين عميق الجذور في الامة التي تدين به شاملاً لآفاق حياتها مؤثراً في تفكيرها مقترناً بتاريخها . وأما إذا كان الدين مقصوراً على جانب ضئيل من حياتها كأن يكون مقصوراً على نوع من شعائر العبادات محدوداً في مفاهيمه ومضمون معتقداته كان تأثيره في كيانها أضعف ولذلك لا يمكن وضع قاعدة عامة في أثر الدين في تكوين القوميات والامم لأن ذلك يختلف باختلاف قوة أثره وسعة أفقه واستمرار بقائه وطول ملازمته للأمة التي تدين به .

ونختتم كلمتنا في أثر الدين بقولنا : إن للدين أثراً في تكوين الامم ولكن هذا الأثر يختلف باختلاف الاديان والامم وباختلاف العصور

والاحوال فيكون قويا حتى يكون العامل الاهم والعنصر الاقوى في أمـة من الامم ويكون بالنسبة الى غيرها عاملا ثانويا من عوامل تكوينها وهو يشارك في ذلك سائر العقائد التي تسود الامم وتـدين بها الشعوب .

ولو نظرنا في ضوء هذا البحث الى أثر الاسلام في العرب والصلة بينه وبينهم لوجدنا أن الاسلام كان له الأثر الاكبر في جميع نواحي حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية والنفسية ولايزال أثره كذلك قويا في حاضرهم فهو الذي أنشأ مابينهم من انسجام في الفكر والروح والاتجاه والسلوك ذلك الانسجام الذي مكنهم من التعاون على إيجاد حضارة ذات أسس ومعالم فهو بالنسبة إليهم ليس دينا بالمعنى الضيق فحسب بل هو فكرة وعقيدة ونظام اجتماعي وثقافة وتاريخ وحضارة وقيم ومثل عليا ونظرة شاملة الى الوجود .

الاسلام والامة العربية :

نستطيع في ضوء هذه المعلومات والمسلمات التي قدمناها أن نعرف العلاقة بين (الاسلام) و (الامة العربية) وإلى أي حد يمكن أن نعتبره عنصراً أساسياً وعاملاً مكوناً لها ورابطاً بين أبنائها في

الماضي وفي الحاضر . ولنستبين هذه العلاقة نقدم الافكار والملاحظات التالية :

(أ) إن صلة الاسلام بالعرب تاريخياً صلة لاتنفصم . ذلك أن الاسلام هو الذي جمع العرب لأول مرة في تاريخهم في اطار اجتماعي وسياسي واحد . ولم يسبق لهم أن اجتمعوا في ظل فكرة وعقيدة واحدة ونظام واحد قبل ذلك ولا تحت حكم واحد . وهو كذلك قد حملهم رسالة إنسانية رائعة مفتوحة الآفاق إلى العالم أجمع وبعثهم على تأسيس حضارة لم يسبق لهم ولا لغيرهم تأسيس مثلها .

(ب) لقد أصبح الاسلام بالنسبة الى العرب منبع حضارتهم وقوام تفكيرهم ومصدر ثقافتهم الاساسية وموجه حضارتهم والمخطط لها ، وغدا تاريخه هو تاريخهم فكان بين أمة العرب والاسلام ديناً ورسالة ونظاماً اقتران مستمر على الزمن وتلازم لايقبل الانفكاك وأصبح كل انتقاص او طعن في الأسلام او عداوة له هجوماً عليهم وتحطيماً لكيانهم وإشهار عداوة عليهم كذلك

(ج) وعلى أساس الاسلام بني كيان المجتمع العربي في الاسرة وسائر ميادين الحياة الاجتماعية وفي التفكير ومجالات العاطفة ،

كما بنيت على أساسه كذلك صلاتهم الخارجية فانعقدت بينهم وبين الشعوب التي دانت بالاسلام صلات فكرية ثقافية وعاطفية لا تنفصم، وهي صلات تخدم الانسانية والتقارب الانساني بوجه عام.

(د) لايشابه الاسلام في موقعه هذا من حياة العرب أي دين آخر أو عقيدة أخرى قديمة أو حديثة فلا سبيل الى المقارنة في ذلك بينه وبين غيره من الاديان والعقائد لأن ذلك هو واقع العرب وحقيقتهم في ماضيهم وحاضرهم، ومن الخيانة للحقيقة والتاريخ وللعرب والافتئات عليهم تشويه هذه الحقيقة المتعلقة بكيانهم لاعتبارات عارضة أو أهواء خاصة أو تقليداً لأمم أخرى تختلف أوضاعها عن أوضاع الامة العربية.

(ه) إن العرب في العصر الحاضر يدين ٩٥٪ منهم على الاقل بالاسلام فلا يجوز تجريد هذه الجماهير من انتمائهم الى الاسلام المتصل بحياتهم كل الإتصال فان ذلك اعتداء صريح على حق الامة العربية في الحفاظ على مقوماتها الاساسية وكيانها وذلك حق طبيعي يقره الواقع وجميع الأعراف الحقوقية. والاسلام ليس عنصراً تاريخياً فحسب بالنسبة الى العرب بل هو عنصر متصل اتصالاً مستمراً عميقاً

في حياتهم الحاضرة ونظرتهم الى الحياة ومفاهيم عقائدهم ومثلهم العليا وأخلاقهم وعاداتهم بل هو المنبع الاساسي الذي أمد ثوراتهم المستمرة امام الغزو الاستعماري والحاجز المنيع دون ذوبانهم في بوتقة الشرق او الغرب في مذاهب هؤلاء وأولئك ، بل هو الرصيد الذي يدخرونه لانقاذ الانسانية والحضارة مما تتردى اليه .

يقول الكاتب العربي المسيحي نبيه فارس وزميله محمد توفيق حسين في كتابهما (هذا العالم العربي) ص ٤٧ :

(وما يشاهد اليوم في الاقطار العربية من تشابه في نظام الأسرة وفي عقلية الناس وفي سلوكهم أفراداً وجماعات يرجع الى حد بعيد الى انضوائهم تحت لواء الاسلام وعيشهم في ظل ما انتج من نظم اجتماعية وسياسية وعقلية ..... وهو يمتد الى أبعد من ذلك . فهو يوحد العرب المسلمين عاطفياً ويربطهم بوحدة المثل العليا . لقد كان الاسلام وما زال في قلوب الكثيرين من العرب اليوم يقوم مقام القومية وكانت عاطفة الاخوة الاسلامية تقوم مقام عاطفة القومية.

والحق أن جماهير الشعب العربي في اي قطر عربي تنظر الى شعوب الاقطار العربية الاخرى كاخوان لهم يوحدهم الاسلام اولاً والعروبة

ثانياً ، وان عاطفة الاخوة الدينية هذه هي التي ألفت بين الأقليات القومية المسلمة كالاكراد والبربر والزنوج وبين العرب . وبهذا نستطيع أن نفسر محاولات الانكليز لمنع تسرب الاسلام الى القبائل الوثنية الساكنة في السودان ودأب الفرنسيين على إضعاف الدين الاسلامي واللغة العربية في المغرب الاقصى وبين قبائل البربر خاصة لتوهين الوحدة الروحية التي تربطهم بالعرب).

وقال الدكتور جميل صليبا في بحثه عن : (الطابع الانساني للقومية العربية) الذي استعرض فيه العوامل التي كونت القومية العربية :

(وأما الدين الاسلامي الذي نظم العرب ووحد شملهم وألف بين قلوبهم ومكّن لهم في الارض ففرضه ترقية الانسان مادياً ومعنوياً وقد أجمع المؤرخون على اعتبار الرسالة الاسلامية رسالة إنسانية لما فيها من الحض على تحرير النفس والعقل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالمسؤولية الفردية والايمان بالمساواة والشورى والتضامن ..... الى أن يقول : ومتى أدرك الانسان ما في الدين الاسلامي من قيم إنسانية رفيعة أحب الامة التي حملت رسالته ونشرتها في شعوب الارض قاطبة بالتسامح والعدل والرحمة والحب والايمان . وعندي أن

القيم الانسانية التي انطوى عليها الدين الاسلامي هي القومية العربية بعينها فمن لم يؤمن بهذه القيم لم يكن عربياً حقيقياً) .

وقال الدكتور منيف الرزاز في كتابه (معالم الحياة العربية الجديدة) الطبعة الثالثة ص ٢٦٩ في بحثه عن (أركان القومية العربية) بعد أن ذكر وحدة الارض واللغة والتاريخ :

(أما الركن الرابع من أركان القومية العربية فهو الدين الاسلامي ..... إلا أن الذي لاشك فيه أن الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية التي رافقتنا أكثر من ثلاثة عشر قرناً وصبغ تفكيرنا وتقاليدنا وعاداتنا وأساطيرنا ومعتقداتنا وحياتنا اليومية المعيشية .وإن المسيحيين العرب الذين عاشوا في هذه البلاد قد تأثروا بهذه الى حد كبير على رغم اختلاف الدين . فالاسلام في هذه البلاد لم يكن مجرد دين فحسب بل كان تاريخاً وحضارة وحياة عقلية . فالمعول هنا ليس على نسبة المسلمين الى المسيحيين من ناحية العدد وإنما المعول على ما أحدث الاسلام من أثر في حياة سكان هذا الوطن أدى الى توحيدهم جميعاً مسلمين ومسيحيين في إطار فكري ومعيشي واحد .)

(و) وإن وجود أقلية عربية تدين بالمسيحية لاتثلم هذه

الوحدة ولا تغير من الحقيقة التاريخية التي تجعل من الاسلام عاملا أساسياً في تكوين الامة العربية الفكري والاجتماعي والنفسي ،وفي الربط بين أبنائها في الحاضر والماضي وذلك لسببين : أولهما أن من حسن الحظ أن بين الاسلام والنصرانية صعيداً مشتركاً فكلاهما في أصله دين سماوي يبنى على الايمان بالله ومسؤولية الانسان أمامه وبحياة أخرى وراء هذه الحياة يكون فيها الجزاء والحساب وبالنبوات والوحي وبالقيم الروحية والمبادىء الخلقية التي جاءت بها الأديان السماوية وكلاهما يعظم المسيح عليه السلام ويقدسه على اختلاف في طريقة هذا التعظيم وكلاهما يعظم أمه تعظيماً كبيراً وكلا الدينين عاشا في اطار واحد من التسامح والأمن والسلام . والسبب الثاني هو أن المسيحيين من الوجهة القومية عاشوا في أجواء الفكر الاسلامي والثقافة والحضارة الاسلامية وتأثروا بذلك تأثراً كبيراً .

ويمكن أن نضيف الى هذين السببين سبباً ثالثاً مهما وهو أن الوعي العربي العام جعل المسيحيين العرب يشعرون كما يشعر المسلمون أن الاسلام تراثهم القومي ومنبع ثقافتهم القومية وحضارة أمتهم وانطلقت ألسنة الكثيرين من المفكرين والكتاب المسيحيين في التعبير عن هذا المعنى والاتجاه في هذا المنحى .

(ز) لامنافاة ولا تعارض بين حقيقتين واقعيتين إحداهما وجود مجتمع عربي يجمع بينه اللغة والجنس ويتصل بالاسلام صلة وثيقة عميقة وتدين غالبيته به وفيه أقلية تدين بغير الاسلام ولكنها ترى في الثقافة العربية والاسلام عنصرها الأساسي — وفي التاريخ العربي — والاسلام عصبه المحرك — وفي الحضارة العربية — والاسلام روحها وأساس مفاهيمها — ثقافة لها وتاريخاً وحضارة من الوجهة القومية . والحقيقة الثانية وجود دائرة أوسع من الدائرة العربية وتشتمل على شعوب كثيرة تدين بالاسلام وترتبط به عقيدة وروحاً وحضارة وتتصل بالمجتمع العربي اتصالا وثيقاً بسبب الاسلام وترتبط بغالبيته برابطة العقيدة وأخوة الدين كما ترتبط بالمجتمع العربي كله برابطة الثقافة العربية والحضارة الاسلامية . وأما الاطار السياسي الذي يعيش فيه الشعب العربي والشعوب الاسلامية الأخرى فموضوع آخر ، فقد يعيش كل واحد من هذه الشعوب في كيان سياسي مستقل وقد تعيش شعوب متعددة تدين بالاسلام في كيان سياسي واحد في بعض العصور .

فالرابطة التي تربط بين العرب المسلمين رابطة قومية ودينية في آن واحد والرابطة التي تربط بين العرب من مسلمين ومسيحيين رابطة

قومية ويدخل الاسلام في كل من الحالتين وفي كلا الرابطتين من وجهين مختلفين . والرابطة بين العرب في أكثريتهم المسلمة وأبناء الشعوب الاسلامية رابطة دينية وحضارية .

ولا مجال لوضع هاتين الرابطتين الدينية والقومية في موقف التعارض لأن علاقتهما الطبيعية التعاون والتآزر دون أن يكون في ذلك اضرار أو إيذاء لمن ينفردون بالرابطة القومية دون الدينية من أبناء العرب .

٧ – وحدة المصالح الاقتصادية :

يزعم بعضهم أن تشابه المصالح الاقتصادية بين أفراد المجتمع هو الذي يجعل منه وحدة قومية ويكون منه امة واحدة ولذلك كانت رابطة المصلحة الاقتصادية المشتركة في زعمهم إحدى الروابط الأساسية التي تربط بين أفراد الأمة .

لاشك أن المعيشة المشتركة في أرض واحدة مدة طويلة من الزمن تؤدي الى تشابك المنافع والتشارك في المصالح والتعاون في الحياة الاقتصادية ولكن الحياة المشتركة هي التي أدت الى هذه النتيجة وهي سابقة لها ومتقدمة عليها . ومن الأمور المعروفة المشاهدة أن الناس

لايستبدلون بقومياتهم قوميــة أخرى ولاينسحبون من أمتهم لينتموا الى أمة أخرى لمصلحة اقتصاديــة . والأمم التي جاهدت للتحرر من الاستعمار ما كانت لترضى البقاء في حالة الاستعمار ولا الاندماج ولو كان على أساس المساواة التامة مع أمة أخرى لمجرد وجود مصلحـة اقتصادية لها في ذلك .

ولو أن الأمور كانت تجري وفق المصالح والمنافع بالنسبة الى كل بقعـة من الأرض لتغير المصور الجغرافي للعالم ولالتحقت كثير من المناطق بغير البلاد التي هي اليوم جزء منها والتي لاترضى عن بقائهـا معها بديلا ذلك أن الصلة بين أجزاء كل بلد وأفراد كل أمـة هي بالدرجة الأولى رغبة نفسية وصلة معنوية ناشئة عن التشابه والتقارب أو التماثل والاشتراك في العقلية والعادات والثقافة واللغة والمعتقدات والمفـاهيم .

ولكن مما لاشك فيه أن مما يكمل وحدة كل أمة من الأمم ومما يقوي روابطها التعاون الاقتصـادي والاشتراك في المصالح ولذلك تسعى الدول الحديثة لتنسيق المصالح الاقتصادية وتأمـين الخدمات والمنافع لرعاياها . ذلك أن تنافر المصالح الاقتصادية بين الأفراد أو

المناطق أو الطبقات في الأمة الواحدة باحتكارها لجهة دون جهة وحرمان غيرها يؤدي الى تصدع الوحدة وإضعافها بما يحدثه في نفوس فريق من أبناء الأمة من النقمة والقلق والنفور.

٨ - الوحدة السياسية أو الدولة :

إن الوحدة السياسية وقيام دولة لها أرضها وشعبها وحكومتها هو النتيجة الطبيعية للتآلف والتضامن في الأمة التي وحدتها الأهداف والغايات والآراء والمعتقدات والثقافة واللغة والتاريخ والآمال وليست - كما يمكن أن يظن - السبب في تكوين الأمة.

فالوحدة الحاصلة في مجتمع قومي أو في أمة من الأمم تكون موجودة وقائمة مهما يكن وضعها السياسي قبل نشوء الدولة وبعدها وفي حال إلحاقها بدولة أخرى او تحررها واستقلالها ذلك أنها كما قلنا سابقاً ناشئة عن عوامل كثيرة أهمها الثقافة والمعتقدات واللغة والتاريخ والاشتراك في اسس الحياة الأصلية المادية والمعنوية. ولكن لاينكر أثر قيام الدولة في كل أمة فهي التي تصون وحدتها وتقويها وتدافع عن كيانها المادي والمعنوي وتحمي تراثها وثقافتها وعقيدتها وتفسح لها المجال لتزكية مواهبها وتنمية خصائصها وتفتق عبقرياتها فليست

وحدة العرب وقوة تضامنهم وترابطهم بعد ظهور الاسلام وقيام الدولة الجامعة لهم مثلها قبل نشوئها فهي التي صانت لغتهم وحمت عقيدتهم ووسعت آفاق ثقافتهم ومكنت لهم في الأرض .

إن الكيان السياسي – وإن لم يكن عاملا في إيجاد الأمة وعنصراً من عناصر تكوينها الأساسي – متمم لوجودها وضروري لبقائها واستمرارها ولحمايتها والدفاع عنها وتمكينها من تقديم ما عندها من خير لنفسها وللانسانية .



الفهرس

الصفحة

الصفحة

آثار المؤلف

الامة العربية في معركة تحقيق الذات

فقه اللغة وخصائص العربية

نحو انسانية سعيدة

من منهل الأدب الخالد

الدولة عند ابن تيمية

فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ



١٥٠ ق.س

